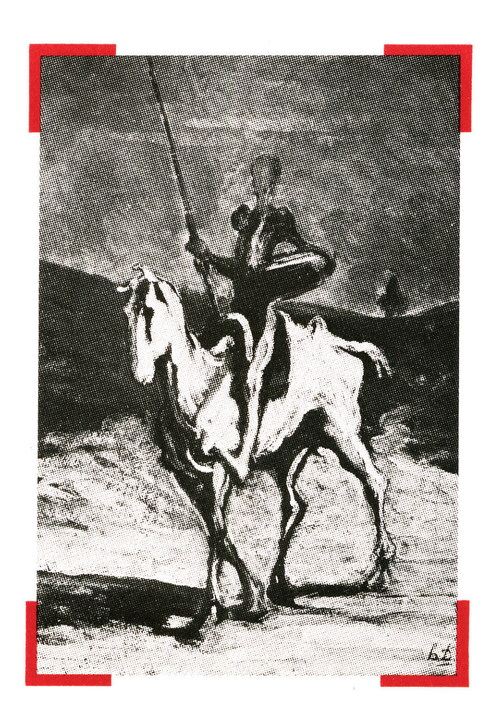
خليل رامز سركيس

الهواجس الأقليّة

من زقاق البلاط إلى كنسنغتن



دار الجديد

خليل رامز سركيس

الهواجس الأقليّة

من زقاق البلاط إلى كنسنغتن

دار الجديد



دار الجديد ـ ✉ : ١١/٥٢٢٢ ـ ☎ : ٣٤٣٧٥٢ ـ نضد النص: علي حمدان ـ ضبطه على اصوله: محمود عسّاف ـ خطّ خطوط الغلاف: علي عاصي ـ رسم الغلاف: محمّد شمس الدين.



إلى جون،
شريكتي في الحياة وفي الهواجس.



نُشر هذا الكتاب حلقاتٍ مُتسلسلةً في جريدة **الحياة**، أعداد ١و٢و٣و٤و٥و٦ آذار (مارس) ١٩٩٣، وقد قدّم له الاستاذ محمّد علي فرحات بالكلمة المُدرجة على الصفحتين التاليتين.



الهواجس الأقلّيّة ـ من زقاق البلاط إلى كنسنغتن، أكثر من كتاب ذكريات، فهو شهادة على التجربة اللبنانية وتحية لبيروت. لأن ما حدث منذ العام ١٩٧٥ واستمراراً ليس مجرد حرب لبنانية وعربية ودولية بقدر ما هو تدمير لمعالم وقيم نمت وازدهرت في بيروت منذ سبعينيات القرن التاسع عشر (عقب الحرب الأهلية اللبنانية الأولى)، وهي قيم أرست تجربة فريدة في التحديث الذي يعترف بالتنوع الاجتماعي الشرقي.

خليل رامز سركيس يُلامس في هذا الكتاب التجربة اللبنانية، ويشهد لما لها وما عليها من خلال سيرته البيروتية، كأديب ومفكر وعضو في العائلة السركيسية، إذ أنشأ جده خليل سركيس جريدة **لسان الحال** عام ١٨٧٧ وتابع والده رامز سركيس (النائب والوزير ونقيب الصحافة) إصدارها، ثم تولاها هو، ليتخلى لاحقاً عن ملكيتها وينصرف إلى التأليف وإلى دوره الحيوي في **الندوة اللبنانية**، كأنه بذلك يفصل بين الصحافة كمهنة والكتابة الأدبية كعمل يشبه النذر. ومن أبرز مُؤَلّفاته **أيام السماء وأرضنا الجديدة ومصير وجعيتا**، مؤلفات تهجس بالإنسان في وجوده وفي مصيره... فضلاً عن مؤلفاته غير المنشورة إلى الآن.

جمع خليل رامز سركيس، بتميز، بين الأسلوبيّة والتأمل الفكري، فاعتمد لغة عربية متينة السبك مختارة العبارة، وكانت صياغاته للمعاني تقتصد في الكلام بحيث يبدو مُشِعّاً يُضيء القارئ، وهو كلام قليل يُوحي بكلام كثير، وبمعانٍ مستفيضة يُمكن للقارئ أن يقولها بنفسه.

إعتنى بالإنسان موضوعاً، بما يشد الإنسان إلى دونية الأشياء وما يسمو به إلى نقاء الروح وعلاها. وهو، في مؤلفاته، يكتب الفكر بحساسية الأديب الفنان لا بـ «إحصائيّة» الباحث المُوَثّق، وإنْ كان دقيقاً في حسّه لا يشطح ولا يُضَيّع قارئه، وإنّما يُرافقه في أُخوّة الروح إلى صلب المسائل التي يعالج إذ يتأمل.

مؤلفاته علامات لقاء بين المعرفة والإيمان، بين ملامسة المحسوس والترقي إلى



المجرد. وكثيراً ما اعتمد أساطير وأماكن كمعالم في تأمله، فكانت جعيتا مثلاً، وهي مغارة في لبنان ينبع منها نهر، مجالاً لحواريّة عن الانتقال من العزلة إلى الجموع، من الفردانية القاتلة إلى تناغم سعيد مع خلق الله. هنا يلتحق الإنسان بمسيرة الشخص إلى مثاله الأعلى، كنقطة ماء في نهر الحياة. وهنا، أيضاً، يبدو خليل رامز سركيس واحداً من أبرز ممثلي «الشّخصانية» في الكتابة العربية الحديثة، يُشاركه في ذلك، من المغرب الأقصى، محمد عزيز لحبابي وإنْ بأسلوب مختلف.

الهواجس الأقلية... شهادة متوازنة المضمون حرة الموقف موضوعية الحكم، ويبدو المؤلف الشاهد مُخلصاً لنفسه وللإنسان الآخر بقدر ما هو مُخلصٌ لوطنه لبنان. شهادة تنطلق من موقف الحرية، كأنما الحر لا ينتمي بل يُنتمى إليه، إذ يتخطى الولاءات الحرفية إلى صميم الإنسان كجوهر.

محمد علي فرحات

١

من زقاق البلاط في بيروت إلى كنسنغتن في لندن مسافة بعيدة الأشياء. لكنها، في ساعات الهواجس الأقلية، تبدو لي قريبةَ الأحايين. هواجسي، تلك، عِلَّةُ هذه الصفحات. إنها هي التي أنطقتني من بَعْدِ عِيٍّ عميق الذهول.

حبستْني عن الكتابة، بضعة عشر عاماً، كوارثُ جنون وغوائلُ إجرام كابدتُ بها مع لبنان ما لم نكابد مثله في بضعة عشر قرناً من تاريخنا الطويل ـ تاريخنا المتعدد الشعوب والحضارات، المُتَقَلّب المشارب والعهود؛ تاريخنا المُضطهَد، الجريح في تحدياتِ صراع بين أن نكون حقَّ الكينونة أو لا نكون.

وُلدتُ في زقاق البلاط خريفَ ١٩٢١. وإلى كنسنغتن انتهيتُ في شتاء ١٩٧٩. زُهاء ستين سنة مسافةُ هذين الحدَّين. السنون ذات روح وجسد في مجرى سيرتي. سيرتي أنا دون سواي؟ لا بل، إلى ذلك، سيرة معظم أمثالي. كم من لبنانيين ـ وغير لبنانيين ـ صارت بهم أسباب إلى مَفارقِ حياة، على مشارق أو مغارب، بحسب ما أرادوا، أو بحسب ما أُتيحَ لهم أو فُرض عليهم! أليست الهجرة، في وجه عام، بنتاً لقدَرٍ مُتنوّع الجنسيات وقرينةً لدهرٍ مُتعدّد الزوجات؟

عندما أذكر العشرينيّات من هذا القرن، وقد سلختُ أكثرها في حيٍّ يموت بزقاق البلاط، أشعر أنني، في وقتنا الحاضر[١]، قد انتقلتُ إلى عالمِ آخرَ لا يكادُ يكون له من علاقة بعالمي الأول.

(١) في الثمانينيّات.



حيٌّ يموت شارع دُعي باسم آل يموت، أسرة بيروتية قديمة تضم، كأغلب الأُسر، البشَر الرفيع والمتوسط والوضيع. فكان فيها العالِم المُعَمَّم والطبيب والمُعَلِّمة والتاجر والقابلة القانونية والعامل وغيرهم. ثم إن تلك الأسرة، على تشعبها، لأشبهُ بالشجرة العشيرة التي رسخ أصلها وتضامنت فروعها أفراداً وجماعات.

ذلك الشارع اختاره جدّي خليل سركيس، في النصف الثاني من القرن الماضي، مقاماً له. فابتنى هناك دارته التي وُلدتُ[1] فيها من بعد وفاته ببضع سنوات. وذكر لي الوالد رامز سركيس أنه لمّا توفي جدّي، هبَّ اليموتيون صوتاً واحداً يطلبون أن يُطْلَق على شارعِ يموت اسمُ خليل سركيس، وفاءً منهم لذكراه وتأكيداً لأواصر المودّة وحُسْنِ الجوار. فما لبث السلطة البلدية حتى لبّت الطلب. وكان ثمة، فضلاً عما تقدَّم، أُخُوَّةُ الحليب؛ إذ كان لعارف يموت، تاجرِ زجاج في سوق البازركان، وللوالد رامز المُرضعةُ نفسها. وأُخُوَّةُ الحليب كان لها تمامُ شأنها عند أهل ذلك الزمن. ولطالما تغنَّوا بها على أنها من بركات اللّه المُشتركة بين عباده. وكنتُ إذا لقيتُ أحداً من آل يموت، قال: «نحن لا ننسى أبداً أن رامز وعارف رضعا من صدر واحد.» وكثيراً ما برهنوا على ولائهم لتلك الأُخُوَّةِ ولاءً طيباً كريماً ملموساً قابلناه بمثله عيناً بعين وسنّاً بسنّ... إن جاز هذا التعبير في باب الخير والمعروف. فما احتجنا إليه من زجاج نوافذ وواجهات كان لنا مجاناً لوجه الصداقة من محلّ الحاج توفيق يموت وشقيقه عارف. وما احتاجا هما إليه من مطبوعات، فضلاً عما يصدر عن **لسان الحال** من منشورات شتى، كان لهما مجاناً لوجه الصداقة.

وربما كان في آخر ما اختبرتُ من أُخُوَّةِ الحليب أمران: أحدهما مع تاجر زجاج، والآخر مع سائق سيارة عمومية. فأما الأمر الأول، فهو أنه، في ليلة حربية من أعنف ليالي بيروت، عام ١٩٧٥، أخذت القذائف تنهمر على محلّة الصنائع

(١) كان التوليد غالباً ما يُجرى في المنزل لا بالمستشفى.



والقنطاري، وكان منزلنا هناك في شارع سپيرز. فتكسَّر بعض زجاج البيت. فاستطعتُ أن أهتدي، بعد أسابيع، إلى محل للزجاج في الشيّاح، ضاحيةٍ في جنوبيِّ بيروت، لأن أسواق العاصمة كانت مُقفلَة أو مُدمَّرة أو مَنهوبة. فاتفق أن صاحب المحل كان من آل يموت، ولم أكن قد عرفته من قبل. فما لبث حتى أرسل لنا عاملَيْن ومعهما ألواح الزجاج، فقاما بما يَلزم. فسألته بيان المطلوب له، فابتسم وقال بشيء من الخفَر: «الفاتورة على أُخُوَّةِ الحليب.» فألْحَحْتُ وكرَّرتُ، فاكتفى بثمن الزجاج واعتذر!

وأما الأمر الآخر فهو أنّي، في شتاء ١٩٧٦، ركبتُ سيارة تاكسي في راس بيروت وقلت للسائق يُوصلني إلى منزلنا في شارع سپيرز. فلما وصلنا وهممتُ بأن أؤدي البدل، قال السائق: «بيت المرحوم رامز سركيس؟» قلتُ: نعم. قال: «وأنت، يا أستاذ، ابنه خليل؟» قلتُ: نعم. قال: «البرَكة الموروثة أعز من المال.» قلتُ: الأخ من بيت يموت؟ فأجاب أنْ نعم، وبدا عليه الارتياح. فصافحتُه وشكرتُه، ثم دعوتُه إلى فنجان قهوة عندنا في المنزل. فشكرني وقال إنه يخشى، إنْ هو غاب ولو ربع ساعة عن سيارته، ألّا يجدها حين رجوعه. فوافقتُه وحسونا القهوة في السيارة.

ذلك كلّه، وأمثاله، وجهٌ لسيرةٍ بيروتية ولتاريخٍ لبناني هما في سجايا شعبنا ظاهراً إلى باطن. إنه لَوَجْهٌ سخيُّ الجمال آغتربتْ عنا أكثرياته في جملة القِيَم التي حُرمنا إذا خُطفتْ في حرب ١٩٧٥ وتوابعها، فضلاً عمّا سبق أهوالها من عوامل فساد ودلائل ظلم وانحطاط.

وكُلّما افتقدتُ هاتيك السجايا الشعبية الأكثريّة، خُيِّلَ إليّ أنها ربما عادت بي إلى جوٍّ يومي الأول في حيٍّ يموت، أو في الحياة على الأصح. ولستُ أُريد أن مولدي حدثٌ تاريخي... بل أعني أنه شاهدٌ لزمن لم يبقَ يعي أبعاد شأنه إلّا الأقلون.

ولقد رُوِيَ لي أنه لمّا وُلدتُ، آسْتُدْعِيَ الطبّال؛ وطبّال الحي بعضٌ من سيرة زقاق البلاط وسيرة غيره، وخصوصاً في شهر رمضان. فخف الرجل على الفور،



فنال نصيبه من حلوان الخبر السعيد، ثم انطلق يُطَوِّف بأرجاء الحي، يضرب بالطبل، يُعلن مولد صبيّ في بيت سركيس، فتُسمَع الزغاريد هنا وهناك. ذلك بأنّ مولد الذكَر خبرٌ أبيض يستحق التطبيل والتبريك. ثم يلي الطبّالَ حلوى المغلي طوال أربعين يوماً يُرسَل في أثنائها بالمغلي صِحافاً وفناجين إلى الأقارب والجيران. فإنْ غُفلَ عن أن يُبعث بالمغلي إلى أحد منهم، لم يكتم عتبه في أغلب الأحوال. أما الأُنثى، فإن مولدها لا يكاد يُذكَر إلّا عرضاً. فهو شيء عابر، أو نصف شيء، عسى أن يُعَوَّض عنه في المرة القادمة إن شاء اللّه.

ولئن كان مولدي، أنا السليل البكر، قد آستُقبل بالطبل والزغردة وأربعين المغلي، فإن والديّ أبيا أن أُربّى تربية الابن الوحيد المُدلَّل، على ما أحاطاني به من ألوان العناية والعطف والحب. وإني أردّ ذلك، في ما أردّه، إلى التربية الألمانية التي تلقاها أبي في المدرسة البروسية في بيروت، وإلى مَيْل أمي كُلَّ المَيْل إلى التربية البروسية التي نشأَ عليها أبي. فاتفقا تمام الاتفاق في كيف يُربّى ابنهما. فيولَد وبفمه ملعقة من خشب، ويُنشّأ تنشئة نفسية وجسدية لا يكاد يكون فيها أثرٌ للذهب وآياته. فيتعلم الولد كيف يبلو فصول العمر، حياةً ومعيشة، وقد آتّكَلَ على نفسه، فمشى على أرض ثابتة تزيده ثباتاً ما وثقَ بها وأَبعدَ فيها. أما الترف وما إليه، فمِمّا يُحَصَّل استحقاقاً ولا يُعطى مجاناً لوجه اللّه؛ وإلّا قعد الولد عن مُمكناتِ حرية ومُرتَجَياتِ إبداع، فبات عبئاً على نفسه وعلى غيره، وكثيراً ما تردّى في أزماتِ تَخَلُّفٍ ودركاتِ انحدار.

ثُمّ إنّ للتنشئة الروحية، في سيرتي، الدور الرئيس. ليس عندنا غلوّ بالدين، ولكنْ عندنا الإيمان مع التقوى حُبّاً للإله من خلال حُبّنا للإنسان؛ أو ذلك، في الأقل، ما أحسب. فكان للكنيسة شأنها ثمة، وأيّ شأن هو! إنها في صميم الجوهر وصميم الوجود ملءَ الزمن وملءَ الأبد. هكذا رُبّيتُ، وهكذا بقيتُ. فلما اختار الوالدان مدرستي الأُولى، مدرسة الآباء اليسوعيين بجامعة القديس يوسف في بيروت، قال لي أبي وكأنه، كما تعوَّد أن يُعاملني، يُخاطب شاباً لا صبيّاً دون السابعة من عمره: «اخترنا لك اليسوعية مع أننا إنجيليون. سترى هوّاتٍ بين صلوات الكاثوليكيين وصلاتنا. لكن الأفضل، مع ذلك، أن تُؤسّس حياتك على



الإيمان والتدين. ليس لدينا في بيروت مدرسة إنجيلية تُوسِّسُ عليهما تأسيساً راسخاً عميقاً. رجاؤنا هو أن تبني سيرتك على صخرة الإيمان باللّه، خالِقِنا الواحدِ الأحَدِ، ربِّ العالمين، على تعدُّد المذاهب والأديان.»

بذلك الرجاء أُدخلتُ قسم الصغار في مدرسة الآباء اليسوعيين. أول الصف صلاة. آخر الصف صلاة. عند انتهاء الصفوف، عصراً، صلاة يشترك فيها التلاميذ كافة. ثُمّ يومَ الأحد، صباحاً، إلى المدرسة لحضور صف التعليم المسيحي وصلاةِ القُدّاس؛ فظهراً إلى البيت. الأحد الأول والثاني حضرتُ صف التعليم المسيحي والقُدّاسَ في الكنيسة الكبرى بجامعة القديس يوسف. حتى إذا كان الأحد الثالث، استدعاني الأب الناظر فقال لي: «يا ابني، وقْت الكنيسة، عليك أن تذهب إلى قاعة خاصة يذهب إليها التلاميذ المسلمون الذين لا يُؤْذَن لهم في دخول الكنيسة لأن الصلاة ليست صلاتهم ولا صلاتك، ونحن لا نريد أن نفرض الكنيسة عليهم ولا أن نفرضهم عليها. إلى هناك تذهب في ساعة القُدّاس.» ودلّني إلى القاعة. ففُوجئتُ وامتثلتُ لم أنبس بحرف. ومرّت بضعة أسابيع وأنا أَمضي، في أيام الأحد، إلى قاعة المسلمين حيث كنا نتلهّى ببعض الحكايات نقتل الوقت بالتي هي أَهْون.

وما أدري كيف ثُرْتُ بغتة، ذات مرة، فأردتُ أن أُضْرِبَ عن المدرسة يوم الأحد، ولَزِمتُ الفراش. وكان سائق سيارتنا قد وصل باكراً لينقلني إلى المدرسة ثم يعود بي، ظهراً، إلى المنزل كما تعوَّد أن يفعل كل أحد. فأسرع بعض الخدم يُوقظني فتناومتُ وتصاممتُ ثم أبَيتُ النهوض. فهبّت أمي تستخبر. فَبُحْتُ لها بما يضطرب في نفسي وبيَّنتُ السبب. ففهمتْني وشاركتْني في شعوري، غير أنها لم تُوافقني على هذا الإضراب. قالت لي: «الحق معك، لكن الأفضل أن تذهبَ الآن إلى المدرسة، إلى حيث قال لك الناظر لتذهب؛ وأبوك يُسَوّي الأمر مع رئيس اليسوعية.» ثم ضمّتني إلى صدرها في قبلة حنان ما أزال أشمُّ طيبَهُ إلى اليوم وأنا أُقارب السبعين.

وهكذا كان. فطار بي السائق، في ذلك الأحد، إلى المدرسة. واتصل الوالد، يوم الاثنين، بجامعة القديس يوسف يُريد أنْ يُقابل الرئيس العام، الأب



شانتور(١)، من أكابر اليسوعيين في العالم، فاستقبله في اليوم نفسه. فأطلعه أبي على ما فعل الناظر، ثم قال له ما هذا معناه: «سلّمتُ لكم ابني الوحيد لكي تُلَقّنوه، فضلاً عن منهج التعليم، مبادئ الإيمان والدين، لا لكي تربّوه على التفرقة والتمييز. التلاميذ الموارنة والكاثوليكيون عامة حضورهم القداس، عندكم في الكنيسة، أمرٌ إجباري. التلاميذ الأرثوذكسيون حضورهم اختياري. التلاميذ المسلمون يُفسح لهم في صلاة الجمعة وفي الصوم بشهر رمضان. أما التلميذ الإنجيلي، فإنه، عندكم، شبهُ منفي عن حقه في الكنيسة. فإذا هو شبَّ غداً فسلك طريقه في الحياة، شعر بأنّه منفيّ عن أكثر ميادينها لا لِعِلّة إلا لكونه من فئةٍ أقلية.»

أصغى الأب شانتور إلى «خطاب» الوالد إصغاء تاماً عميق الدلالة. فاستغرب ما سمع وكاد لا يُصَدِّق. فاتصل بالناظر يستفسر. فاتضح له من إجابة الناظر أنني التلميذ الإنجيلي الوحيد في يسوعية الصغار. وقال الناظر إنه تحيَّر أين يضعني أيام الأحد، وخصوصاً في أثناء القُدّاس، فلم يجد أفضل من أن يحشرني بين التلاميذ غير المسيحيين. قال ذلك ببراءةٍ عفوية. فاعتذر الأب شانتور إلى أبي عن قصر نظر الناظر وأكد أنه سيؤنّب. فشكر الوالد للرئيس العام حكمته وحزمه، ثم ودَّعه وخرج راضياً مطمئناً.

أما أنا، ابن السنوات السبع، فما رضيتُ ولا اطمأننتُ. لكن، مع ذلك، سكتُّ على مَضَض. فلقد هجس برُوعي، على حداثة سني تلك، شعور ما ينفك، إلى الساعة، يُوسوس لي يقول: «أنت أَقلّي في أرض أقليّات. أقلية أكثر عدداً من غيرها، وأقلية دون غيرها عدداً. فُسيفساء شَعبٍ في ألوان طوائف.» هكذا وعيتُ الدين والدنيا في نحو عام. فما لبثتُ طويلاً حتى هجس برُوعي مُزْمِنٌ آخَرُ هو الشعور بالذنب وكأني أنا المسؤول عن كُلّ ذنب يُقترف.

لست أعرف، على وجه التدقيق، سِرَّ العلاقة بين هذين الشعورين اللذين طالما حزّا بصدري، فكان لهما في مجرى سيرتي التأثير السلبي المستبد. ولقد

(١) Chanteur.



قُرِئَ في مؤلَّفاتِ لي أنني إنسان مُضطهَد الوجدان، مُعذَّب الضمير، قَلِقُ حالاتِ النفس في أحيانه. وأذكر، في هذا الصدد، أن الأب برنار المعلوف الباسيلي الشويري جاءني يوماً، في ربيع ١٩٧٤، وبيده مُؤَلَّفي **جعيتا**، فقال إنه يُعِدُّ أُطروحة موضوعها الشعور بالذنب في الأدب العربي الحديث، وإنه قرأ في **جعيتا**، وقبلاً في كتابي **مصير**، وفي غيرهما، كثيراً من آيات هذا الشعور. ثم أضاف أنه يرى في شعوري بالذنب ظاهرة إنجيلية پروتستانتية ربما كان مَرَدُّها إلى أن الإنجيليين لا يُؤمنون بسرِّ الاعتراف للكاهن ولا بسُلطته من حيث العفو والغفران. وخلَص إلى أن اعتراف الإنسان للإنسان مُتَنَفَّسٌ حاجة حيوية إن كُبتتْ، أثارت فيه الشعور بالذنب. فقلتُ للأب معلوف إن شعوري هذا، الذي ركبني منذ أيام الطفولة، قد تطوَّر على مر السنين، وإني أُرْجِعُهُ، في الأغلب، إلى كوني أقليَّ الطائفة، فإلى كوني أطلب الكمال ما استطعت. ولقد طالما حاولتُه في الشيئيّات العابرة، فضلاً عن الشأنيّات الخاصة والعامة، فما ازددتُ إلّا إدراكاً لقصوري عنه ونقصي فيه.

مِن مُرَكَّبِ النقص هذا، وقد يُقال له عقدةُ الدُونيّة، وممّا تَقَدَّمَهُ في مُبتدإ الأمر وُلدتْ عندي عقدة الذنب.

أنا مِن أقليّةٍ ما تفتأ تلمس أنْ ليس لها الصوت المسموع في عالم بُنِيَ على منطق الحقِّ الأكثريِّ الذي لا بدَّ فيه للأقليّ من أن يُعاني أزمات الشعور بنقص الكيان وذنب الوجود.

وأُرجِّحُ أنه مما زكّى فيّ ذلك الشعورَ المُثنّى فحْوى حديث رواه لي جرجي نقولا باز، نصير المرأة، عن جدي خليل سركيس مؤسس جريدة **لسان الحال**. قال باز ما هذا مؤدّاه: «ذكر لي جدك أن كرنيليوس ڤان ديك[1] قال له يوماً: «لماذا خلقكم اللّه مسيحيين في الشرق؟ إنكم مشكلة لأنفسكم ومشكلة لنا.» ولقد استعلمتُ والدي صحة هذه الفلتة، فأكدها. لكن لم يَبْدُ أنها أقلقته وإن يكن قد استغرب أن يُطلقها مُرْسَل إنجيلي وعالم مُستشرق في مستوى ڤان ديك.

(١) Cornelius Van Dyck.





٢

عاش الوالد في نجوة من ذلك الشعور المُثَنّى، في نجوة من هواجسه ومن أزماته. فكان رجلاً أقليّاً كثير الأصدقاء والمعارف، مُنتشر العلاقات العامة والخاصة، يسلك ثبْتَ الجَنان والخُطى في بيئةٍ وفَّرتْ له من أسباب الأمان والضمان ما أَطلقَ سيرته، وقوّى شخصيته، وأشاع فيه الثقة والإقدام.

وربما كان في أمتن صداقاته، وأنا أذكرها مثلاً هنا لا حصراً، صداقته للشيخ محمد الجسر. وَجْه من أوائل الوجوه التي وعيتها عندنا في البيت، عالي القمة، مَهيب الإطلال، بهيّ الهيئة والقَسَمات، إلى وداعةِ نظراتٍ مُحبّباتٍ يختصرن وشائجَ مئةِ سنة بين أُسرتين لبنانيتين.

كان الشيخ الجسر ينشر في **لسان الحال**، بين الحين والحين، مقالات سياسية ينتقد فيها الحكم العثماني قبل إعلان الدستور عام ١٩٠٨؛ وكان يُوَقّعها باسم مستعار حُفظ سرُّه في ذمة جدي مؤسس الجريدة. فأرادت السلطات أن تعرف اسم الكاتب الحقيقي. فلما أبى جدي أن يكشفه لها مخافةَ أن يُعتقل صاحبه فَيُعَذَّبَ، هذا إن لم يُغَيَّبْ في مياه البوسفور، انصبت النقمة على **لسان الحال**. فأُحرقت بنايتُها، إدارةً ومطبعة ومسبكَ حروف، ثلاث مرات، مرّةً لنشرها مقالات محمد الجسر، ومرّتين لنشرها مقالات كان سليم سركيس يكتبها وهو في القاهرة ثم يبعث بها إلى عمّه جدي في بريد خاص يعتمده بعض المُهرّبين.

ثم إن الشيخ الجسر كان يروي، في شيء من تداعي الخواطر، ما جرى في **لسان الحال** أيام جمال باشا، أو جمال السفّاح كما لُقِّب مِن بعد سقوطه.



وفحوى الخبر أن أحد الضباط العثمانيين جاء، في نهار من ربيع ١٩١٦[1]، إلى **المطبعة الأدبية** (وهو اسم مطبعة **لسان الحال**)، فقال لأبي إنه مبعوث من جمال باشا وقد بلغه أن إدارة المطبعة اشترت مقطعاً جديداً؛ وطلب أن يرى المقطع. فأراه أبي إياه. فأعجبه، فابتسم له وقال: «حسَن، حسَن؛ هذا أفضل من المشنقة. نستعيره من وقت إلى وقت.» فوافق الوالدُ مُكرَهاً، غير أنه التمس ألا يُرَدّ المقطع إلى المطبعة لأنها كثيراً ما استعملتْه في صناعة التجليد للكتاب المقدس والقرآن الكريم. فبُوغت الضابط، فأطرق لحظة ثم قال إنه لم يبقَ يريد المقطع وإن «دولة الباشا رجل مؤمن يتقي اللّه.» وانتهى الأمر.

وتنقضي أعوام. فينطوي حكم العثمانيين. وتنتهي الحرب الكبرى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). ثم يُعْلَن الانتداب في لبنان، والشيخ الجسر لا يفتأ يذكر ما تسببتْ به مقالاته «النارية» من إحراق لبناية **لسان الحال**، وما كان عليه أبي من براعة التخلص في ورطة المقطع. حتى إذا أوشكت **لسان الحال** أن تدخل عامها الخمسين في سنة ١٩٢٦، عمد الجسر إلى تأليف لجنة ليوبيل الجريدة الذهبي، فانتُخب رئيساً للجنة وهو يومئذ رئيس مجلس الشيوخ. ثم توجه هو وأعضاء اللجنة إلى **لسان الحال**، فزاروا الوالد، ونبّأوه خبر اليوبيل. وكان مما قاله الرئيس الجسر: «**لسان الحال** لسان حالنا. عَرَفناها في عهد الأب المؤسس، وعرفناها في عهد ابنه، صاحبِها اليوم، فأجمعنا على أن الوعي الوطني يستدعي أن نُكَرِّمها في عيدها الخمسين.»

أُقيم الاحتفال في نادي **مدرسة الأحد** في بيروت، في كانون الأول ١٩٢٧. فتكلّم فيه محمد الجسر وأمين الريحاني وخليل مطران ومحمود عزمي ووديع عقل وابرهيم المنذر وأسعد داغر ونجيب خلف وجرجي باز. وحضر الاحتفال رئيس الجمهورية شارل دباس، ورئيس الوزارة الشيخ بشارة الخوري،

(١) هو العام الذي أعدمتْ فيه السلطات العثمانية قافلة من شهداء لبنان وقد أَمَرَتْ بهم أن يُشنقوا في ساحة البرج في بيروت، فسُميتْ في ما بعد **ساحة الشهداء**؛ ثم أمست، منذ حرب ١٩٧٥، أرض وحشة وخراب.



ومُعظم الوزراء، ورجال السلك الدبلوماسي، ومندوبو الهيئات الوطنية، ومُمَثّلو الصحافة العربية في مختلف ديارها شرقاً ومهاجر، فضلاً عن جمهور من أصدقاء **لسان الحال** وقُرّائها المُدمنين. فكان ذلك أول احتفال بيوبيل ذهبي يُقام في البلاد.

دار الجديد

٣

على ثبات من تلك الأرض الجيدة، وفي صفاء من ذلك الجو المُؤَيِّد شبَّ وشاب أبي، الأقليُّ ذو الأكثريات رجالاً وأمثالاً ملءَ فصول الحياة ومواسم العمر. ومن هُنالك مضى لسبيله عام ١٩٥٥. فكان إلى الرحيل أسبق من أرضه التي زحلتْ، ومن جَوِّه الذي تكدَّر مِن بعده وتجهَّم. فلم يقع في نفس الوالد قط ما كان يترقب غدويّاتِ قومه وبلاده من جوائح التهلكة. فبقي حتى النهاية على نقيض من شعوري بمُرَكَّبات الذنب والقصور وكأنما هي، عندي، إشاراتُ نذيرٍ مجهول.

ولقد طالما عُدْتُ، من جهة ذلك، على بَدْء كان له في مصيري تأثيرٌ عميقُ الأجل. فانكفأتُ إلى بعض ما سلف من أمري مع الناظر في المدرسة بيسوعية الصغار. فذكرتُ، إنصافاً له، أنه أراد أن يُصلح خطأه حيالي وقد رأى سلبيات تأثيره فيّ. فحاول مراراً أن يُخفّف عني أوزار ذلك الشعور. فدعاني إلى أن أَخدم في القداس إذا شئتُ، فاعتذرتُ واكتفيتُ بحضوري إياه. وكم لاطفني، وكم سخا عليّ في توزيع الجوائز، وكم فسح لي في مزيدِ لَعِبٍ وأيامِ عطلة، يقول إن المدرسة بيتي الآخَر، وإنه هو مِثْلُ أبي، وإننا، نحن التلاميذ، كُلّنا أبناؤه. فلم يكن حُسنُ مُعاملته ليُغَيِّرَ ما يعتلجُ بي ولا كان ليحلَّ عقدتي المُركَّبة. فلما أعياهُ أمري بعد بضعة أشهر، لجأ إلى صديق للوالد هو فؤاد أفرام البستاني، رأس الدروس العربية في جامعة القديس يوسف، لعله يُوَفَّقُ حيث أخفق سواه.

كان ذلك في شتاء ١٩٢٨، على ما أُرجّح، وفؤاد أفرام، (هكذا كان



يُخْتَصَرُ اسمه)، عِزٌّ شباب في وَثْبِ طموح مع أَلْمَعيّةِ جدٍ موزَّع النهار وبعض الليل بين التأليف والتعليم. فدعاني إلى مكتبه في الجامعة. فرحَّب بي وخاطبني كأني نظير له لا على أني تلميذ دون الثامنة. ولقد أشعرني، من خلال ذلك، بأن الرابطة البستانية[1] ليست كلمة تُقال بل هي عهد يؤدى. ثم أكد لي أنه عمي وأخي الكبير. ولم يذكر الناظرَ بشيء على الإطلاق. ثم ختم يقول إن الوالد سيُطلعني، في الوقت المناسب، على **الوصية التنوخية**؛ ولم يزدني إيضاحاً. وكانت تلك أول مرة أسمع فيها بـ **الوصية التنوخية**. فلم أُدرك لمَ أشار إليها و إن لم يكد يغيب عني اسمها من ذلك اليوم. حتى إذا كنتُ مع الوالد في قرية عبيه، في صُبحيّة مُشرقة من صيف ١٩٣٣، أتى على ذكر **الوصية** وأراني مقام السيد عبداللّه التنوخي هناك. فلمّا عُدنا ظُهراً إلى عاليه حيث كنا نُصَيّف، كلّمني أبي على **الوصية التنوخية** وعلى علاقة أسرتنا بالأُمراء التنوخيين في عبيه كلاماً مُسهباً بعيد المقاصد. ثم أطلعني على ما كتبه في هذا الصدد عيسى إسكندر المعلوف، مؤلِّف **تاريخ الأُسر الشرقية العام**، وقد نُشر ذلك في كتاب **يوبيل لسان الحال الذهبي ١٨٧٧ ــ ١٩٢٧**[2]. وفي ما يلي نص المعلوف ويتضمن **الوصية التنوخية**:

«آل سركيس أُسرة قديمة نشأتْ في قرية قيطو من قرى بلاد البترون في لبنان. قدم جدُّها سركيس سركيس إلى قصبة عبيه في شوف لبنان مقر الأُمراء التنوخيين حُكّام غرب لبنان. فأكرم مثواه السيد عبداللّه التنوخي[3] الشهير بورعه وآدابه وكرم أخلاقه وعلومه. فنال سركيس لديه مكانة هو وأولاده حتى إنه أمر ببناء كنيسة لهم باسم شفيعهم مار سركيس، ولا تزال بإدارة كاهن منهم إلى يومنا. وخصَّهم فوق ذلك بوصيته بإعطاء. وهذا هو نص الوصية لهم:

«ويكون لآل سركيس من غَلَّة أملاكنا مائة حق زيت ومائة شنبل قمح سنوياً تُعطى لهم موفاة براءة عن ذمتنا.»

(١) لويزة، جدّتي لأبي، هي إحدى بنات المعلم بطرس البستاني.
(٢) المطبعة الأدبية، بيروت ١٩٢٨.
(٣) ١٤١٧ ـ ١٤٧٩ م، ٨٢٠ ـ ٨٨٤ هـ.



وهي الأُسرة المسيحية الوحيدة التي خصّها السيد المغفور له بهذه الوصية في ما نعلم. فتكون أَقدم الأُسر التي نَفَذَتْ كلمتها عند التنوخيين المشهورين بإقطاعاتهم الكثيرة وبحُسن مُعاملتهم لرعاياهم وبانتظام حُكومتهم ومُراعاة جوارهم، لأنهم من صميم العرب العرباء الذين خلّدت لهم التواريخ مآثر طيبة وصفات حميدة وآداباً رائعة.»[1]

قرأتُ **الوصية التنوخية** غير مرة. وكثيراً ما رجعتُ إلى ما بين سطرَيها من مكنوناتٍ طيّبات هُنّ ذخرٌ لأُسرتنا ما نزال نتوارثه منذ بضعة قرون، حتى إن علاقاتنا ببني معروف تَتّسِمُ بتلك الوصية اتّساماً حياً في المواقف العامة والخاصة.

ولقد كنتُ يوماً، في مأدبة أولمها في لندن، شتاءَ ١٩٨٦، بعض الأصدقاء اللبنانيين. وكان بين المدعوين أخ كريم من بني معروف. فدار الحديث، أول ما دار، على الأحوال في لبنان وعلى المهاوي التي سقطتْ فيها البلاد. فما برحنا ننتقل في الحديث ـ وفي الرأي ـ من منطقة لبنانية إلى منطقة حتى أفضينا إلى جهات عبيه. فالتفت إليّ الأخ المعروفي فابتسم وقال: «إن لآل سركيس، عندنا، وصية تاريخية.» قلت: نعم، وأنا مُشتاق لعبيه. فلو تسلّحْتُ بهذه الوصية وذهبتُ إلى عبيه وجوارها... فقال: «بصراحة، الرجعة غير مضمونة في هذه الأيام.»

أعْجبتني صراحته؛ ولكنني تألمتُ إذ وجدتُني أرتدُّ، مرة أخرى، إلى شعوري المُزمن، المُرهِق، وكأني مسؤول عن ذنوب الناس أجمعين.

ولئن كنتُ لم أرَ عبيه منذ ١٩٧٥، فلقد نُبِّئتُ، والعهدة على المُنَبّئ، بما وقع هناك عام ١٩٨٢ بعد ما انشقَّ الجبل، فانفصل، فتمزَّق في ضربة هي من أدهى النوازل التي اجتاحت لبنان. ومما ذُكر لي، في هذا القبيل، أن مقام السيد عبداللّه التنوخي في عبيه هُدم فأُحرق. ومما ذُكر لي، أيضاً، أن كنائس عبيه هُدمتْ فأُحرقتْ، حاشا كنيسة مار سركيس للموارنة إذ اعتُبرتْ في حمى **الوصية التنوخية**، مع أن المعركة في الجبل كانت، على العموم، بين موارنة ودروز وحُلفاء المعسكرَين.

(١) **عيسى إسكندر المعلوف**، كتاب **يوبيل لسان الحال الذهبي** ص ٢٣٣ و٢٣٤.



ذلك، وسواه، بعضٌ من كُلِّ نُكبتْ به عبيه ونُكبتْ به مدن وقرى لبنانية أُخرى. وربما كان في مقدمة أسبابه أن أقلياتنا، ـ إذ كل أكثرية عندنا هي، إجمالاً، أقلية في وضعٍ ما، ـ أقول إنه ربما كان في مُقدّمة أسبابِ ذلك، على ما أعتقد، هو أن أقلياتنا عادتْ لا قِبَلَ لها بأن تتعايش إلّا أن يسوسها حكمٌ كَفْيٌ عادل قبْضته من حديد. فأين هذا الحكم؟ وأين هذه القبضة؟ وأين هذا الحديد؟

علَّمنا التاريخ، ـ إذ الطائفية هي في طبيعة الشأن السياسي الذي بُنيتْ عليه الدولة اللبنانية وما إليها وما عنها ـ، علَّمنا التاريخ أن لبنان، حراً، مستقلاً، قوامه الوفاق الماروني والدرزي مقترناً بالوفاق السني والشيعي في وحدة كيان إلى وحدة مصير. أما الفئات الصغرى، فهي التوابع خلْفَ الزوابع كما قد يقال. وإني لأتمنى لو تُخَطِّئُني الأحداث حين أزعم أن قوامنا هذا قد غيّبتْه، هو أيضاً، حرب الآخرين، فضلاً عن اللبنانيين، على أرضنا المُغتصَبة سهلاً وجبلاً.

فكان من ذلك كُلِّه، ومن كثيرٍ غيره، ما طفح بي إلى لندن. بَيْدَ أني لم أبرح زقاق البلاط رأساً إلى كنسنغتن، بل أقمتُ في شارع سپيرز[1]، بمحلة الصنائع في بيروت، زهاء خمسين سنة. ولكنْ، مع هذا، لا بد لي أن أستعيد من زقاق البلاط ما أود الكلام عليه هنا.

وذلك أن الانسجام الطائفي في زقاق البلاط، إلى أواسط قرننا العشرين، كان، في جُملته، على المُستوى الخاص وكأنما هو صورة لواقع الانسجام الطائفي في معظم مناطق لبنان. والأرجح أن لهذا الانسجام، على النحو الذي ذكرتُ، دواعيَ مُتعددة أولُها، في رأيي، أنّه انسجام بين النُّخبة من كل طائفة، النُّخبة بمعناها الإنساني الفاعل وبمداها الشامل الجامع. أما على المستوى العام، فإن الانسجام الطائفي كان، في جُملته، غير ملموس. ورُوي لي أنه كان إذا اندلعتْ فتنة طائفية في بيروت، في بعض أيام العثمانيين، تطوَّع أحد قبضايات زقاق البلاط المسلمين بمن يحرس أبي

(١) شارع مدرسة الصنائع والفنون إلى ١٩٤٣.



وعمّاتي إذ هم في طريقهم مشياً إلى المدرسة البروسية، ثم عند رجوعهم منها إلى البيت. وكان موقع المدرسة حيث مُجَمَّع ستاركو التجاري، وقْتَنا هذا، في شارع عمر داعوق.

أما لِمَ كان الانسجام الطائفي، في جُملته، غيرَ ملموس على المستوى العام، فإن لذلك أسباباً مُتعددة أوّلها، في رأيي، الشعور الأقلّي، والمنطق الأقلّي، والسلوك الأقلّي على هذا المستوى؛ حتّى إن الأكثريَّ كان يحيا ويعيش، في المستوى العام، وكأنه أقلّي. فهو مُتعصّب تَعَصُّبَ الأقلّيّ، وهو قويّ قُوَّةَ الأكثري.

الأمر الغريب، هنا، هو أن جيل والدي، وكان إلى حوادث لبنان بين ١٨٤٠ و١٨٦٠ أدنى من جيلي، لم يكد يُعاني العجز الأقلّيَّ الذي يُعانيه جيلي، ولا قارب تلك الحوادث ولا استعاد أخبارها كما أصبحنا نقاربها ونستعيد. والأظهر أن هذا الأمر الغريب ليس مُفارَقة ذهنية أو عاطفية بقدر ما هو نتيجة للتكاثر والاختلاط أناساً وأجناساً، مع تضاؤل النخبة وانقباضها وتَراجعها، ومع ازدياد المشكلات وتعذُّر القضايا التي نشأتْ عن اختلال التوازن النسبي ما بين النخبة وسواد السكان.

كان مُجتمع زقاق البلاط يُقيم على الواقع الذي ذكرتُ من جهة المُستوى الخاص والمُستوى العام. كان ثمّة آل مخزومي وآل عقاد ـ مثلاً ـ في جوار آل حداد وآل أسير. وآل فريج وآل دسّوم في جوار آل عويني وآل أبي النصر. وآل خوري وآل نابلسي في جوار آل نحاس وآل فرعون. وآل واكد وآل بوّاب في جوار آل حميّه وآل جبر. وآل مخيش وآل بستاني في جوار آل عتر وآل صبرا. وآل يموت وآل زيدان في جوار آل مكوك وآل سركيس. وكان غيرهم إلى غيرهم في جوار غيرهم إلى غيرهم. فما الأسماء التي أوردتُ هنا إلّا بعضٌ من كُلّ، وليست هي على وجه الحصر.

هكذا كانت الأُسَرُ، وهي عَهْدَئذٍ النخبة بمعناها الأوفى، تحيا وتتعامل، وداً وطيب جوار، في ما دعاه ميشال شيحا «العائلات الروحية»، فحوى بيروت خاصة ولبنان عامة. فَوَعَتْ تلك الأُسر، بِحِكْمتها الشعبية البسيطة، الصادقة حَدْساً وحِسّاً،



أننا إذا تعايشنا فتفاهمنا كُنّا في خير وأمان، وإلّا استبد بنا من دواهي الاستئثار ما يُفقرنا ويُذلّنا أفراداً وجماعات.

ولئن قيل إن هذا التعايش لم يَخْلُ من بعض الآفات، فلقد عمَّر، في ما له وفي ما عليه، مَدَّ أجيالٍ حتى قسّمتنا أهوال ١٩٧٥، فشرَّدتْ ما شرَّدتْ، وبدَّدت ما بدَّدتْ، وهدَّمتْ ما هدَّمتْ في الإنسان منا وفي الكيان.

وربما جاز القول، هنا، إن لبنان ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠، على التقريب، تقلَّبَ في مراحل انتقال من الخاص إلى العام. فلبنان العشرينيّات هو لبنان الخاص، لبنان النُّخبة؛ وسُكّانه عددهُم محدود بالنسبة إلى تَفَجُّرهم، منذ الخمسينيّات، جماهيرَ جماهيرَ في ألف صنف وألف لون، على مدًى ضاع فيه التوازن والاتزان في بلد لم تَتَكَوّن طبيعته البشرية تَكَوُّناً يحتمل هذا الضياع. حتى إذا انطلقت الكلمة من حدود البيت إلى لاحدوديّة الشارع فأمست في عهدة الجماهير، لا الشعب وحده، أَفلت الزمامُ إلّا من أيدي خوارج التولّي ومُرتزقة التّسلط بأمر السلاح، ولا سيما أن المسؤولين في أهل النُّخبة لم يُهيئوا الجماهير، ـ إمّا عجزاً منهم، وإمّا جهلاً، وإما تجاهلاً، ـ كيما تتعايش وتتعامل على نحو إيجابي، حرّ، كريم.

ذلك هو، أيضاً، أحد الأسباب التي حملتْ كثيراً من اللبنانيين على أن ينزعجوا عن بلادهم، أرضِ تراثهم، يفزعون إلى آفاق الاغتراب، وخصوصاً في كارثة الحريق الكبير، حريق ١٩٧٥ فما بَعْد.

ولا يخفى أن هذا الحريق تَقَدّمَتْه بضعُ حرائق تمهيدية كانت دونه شراً وانتشاراً. فأمكن عندئذ حصر النار وإخمادها، وإن لم يُقْضَ على أصل علّاتها، فبقي الخطر تحت الرماد. لكن لم يفطن له إلّا أقل الأقلّين، حتى إن رينه حبشي الفيلسوف قال لي يوماً: «أنكون، معشر اللبنانيين، في لاوعي وطني جماعي مشترَك؟»

قبل هذا اللاوعي بزهاء نصف قرن، إذ كان عمر بيهم وميشال شيحا ـ مثلاً ـ نائبين في البرلمان الذي أقر دستور لبنان عام ١٩٢٦، استطاعت صفوة اللبنانيين، برغم أحكام الانتداب، أن تتفاهم على أساسيات وطنية عامة أفضى تطورها إلى ميثاق ١٩٤٣ في نشوة من العزّ والكرامة والاستقلال. أما زُعماء خمسينيّاتنا



وستينيّاتنا فما بَعْد، فإنهم، إذ آرتهن معظمهم بضواغط متعددة، لم يستطيعوا أن يتفقوا على لبنان، لبنان الجوهر ولبنان الوجود. فما زالوا من خُلْفٍ إلى عنف، أزمة في إثر أزمة، حتى كان عندنا ما قد كان.

وأراني أذكر، في باب المقارنة، شيئاً عن مُضادّةٍ شَجَرَ أمرُها بين شيحا وبيهم عام ١٩٢٦، في مجلس العُمَرَيْن، كما كان يُقال للبرلمان الذي ضم بين أعضائه عمر بيهم وعمر داعوق. وذلك أنه في أثناء التباحث النيابي في بعض مواد الدستور، احتدّت المُناقشة بين بيهم وشيحا إذ تباينتْ نظراتهما واتّسَعَتْ شقة الخلاف. فما لبث الرجلان أن انسحبا إلى غرفة مجاورة، في خلوة مُصارَحة طويلة، صافية النية، كان فيها للحكمة وسلامة الحس الشعبي فصلُ القول والفعل. وغير خَفِيّ أن شيحا كان يُغرِّب، وأن بيهم كان يُشَرِّق؛ وكُلّ واحد منهما، في رأي الآخَر، يغلو بموقفه. لكنْ، في لحظة من لحظات الوعي ويقظة الضمير والشعور بالتبعات، أدرك النائبان أن ما يجمعُ أهلَ البلد الواحد هو أهمُّ جداً مما يُفرّقهم. وكان مما قال بيهم لشيحا ما هذا معناه: «إذا نحن اختلفنا، فمن يتفق من بعدنا؟ ألا تسري العدوى إلى سواد الشعب؟ لا غنى لنا عن التفاهم أو نُخْرب البلاد. الخاسر هو الرابح في بلد متعدد الطوائف مِثل لبنان. وعلى الكبير منا أنْ يَسَعَ الصغير وإلّا أيقظنا الفتنةَ، فجرف تيّارُها الكبيرَ والصغير.» ثم عاد الرجلان إلى الجلسة النيابية وقد تفاهما. فأُعلن الاتفاق على مواد الدستور وعُيِّشَ الوفاق. ولقد عُلم، في ما بعد، أن شيحا، مع رهافته اللاتينية، كان أصلبَ موقفاً من بيهم في خلوة المصارحة تلك، ولست أقول خلوة المصالحة لأنهما لم يتخاصما قط، بل بقيا صديقَي العُمر. وأشهد أني رأيت بعيني وسمعت بأذني عمر بيهم، في أواخر حياته، يبكي أخاه ميشال شيحا ويُعَدِّدُهُ يومَ توفي، إذ كان بيهم يتلقى التعزية مع آل شيحا في دارتهم باليرزة.

لكنْ، في مُقابل بيهم وشيحا، كان ثمة عشرات بل مئات من الذين ليسوا كمثل شيحا وكمثل بيهم في هذا القبيل. فكم من مُضادّة، عندنا، أثارت فتنة؛ وكم من معركة أضرمتْ حرباً.





٤

ذكرتُ، في بعض ما سبق، أن بيتنا انتقل من زقاق البلاط إلى منطقة الصنائع؛ وكان ذلك عام ١٩٢٨. ولو شئتُ أن أسرد كل ما عندي عن زقاق البلاط وعن حياتنا ثَمَّ، لألَّفتُ كتابين أو ثلاثة. لكنما قصدي، هنا في الأقل، هو ألّا أُجاوِزَ الموضوعَ الذي عنونتُ به هذه الصفحات؛ وفحواه، كما أوردتُ قبلاً، أنْ لِمَ وكيف أخذتْ فيّ الهواجس الأقلية فانتهت بي من زقاق البلاط إلى كنسنغتن، مثلما انتهت بسواي من أرضٍ ما إلى أرضٍ أخرى.

بيد أني، قبْل أن أنتقل، على هذا النحو، إلى بعض ما كان من أيامِ بيتنا في الصنائع، أُحب وأَكره، في شيء معاً، أن أروي قصة خطف السيد شكري الخوري إلى زقاق البلاط، في خلال حوادث ١٩٥٨، إحدى تَمْهيديّات حرب ١٩٧٥.

كان شُكري، هذا، في الستين من عمره. وهو ماروني من وادي شحرور في قضاء المتن. وكان يُقيم بمنطقة الجميزة في بيروت، ويعمل مديراً لمطبعة **لو رڤاي**[1]. وقد روى لي أنه بينما كان يمر بمنطقة المزرعة في حزيران ١٩٥٨، لأمر يتعلق بالمطبعة، إذ وقفه بعض المسلحين عند أحد الحواجز. فلما عرفوا هويته، قبضوا عليه، فعصبوا عينيه، ثم انطلقوا به إلى ما كان يسمى «المحكمة

(١) LE RÉVEIL أي **اليقظة** اسم جريدة ومطبعة أسّسهما الصحفي إسكندر الخوري في أوائل عهد الانتداب. فلما تُوفّي المؤسس، وُقفت الجريدة، وكانت تُنشر باللغة الفرنسوية، وأُبقيت المطبعة في عهدة ابنته إيمي الخوري. ولم تُعَد الجريدة إلى الصدور إلّا بعد زُهاء ثلث قرن، في أواخر السبعينيات، إذ أشرف عليها الرئيس الشيخ أمين الجميّل.



الشعبية»، وقد جُعل مقرُّها في البيت الذي وُلدتُ فيه بزقاق البلاط، في شارع خليل سركيس. وقال لي شكري الخوري إنه أُبقي معصوب العينين ساعات، ثم دُفِعَ، بغتة، إلى حُجرة مظلمة أخذ يكتشفها شيئاً فشيئاً، فرآها أشبه بمُستودع للمونة سُدَّتْ نوافذه بنَمْليّات متينة المعدن، وهي، على حَسَبِ التسمية الشائعة، صفائح لها ثقوب ضيقة جداً لا يدخل منها إلّا الهواء. كان المخطوف يعرف بيتنا معرفة مُفصّلة، وكثيراً ما تردد إليه يزور الوالد ويستشيره في بعض الأمور الخاصة. فما لبث شكري طويلاً، وهو يتقلّب على أشد حالات الخوف والقلق، حتى تذكَّر أنه تقدَّمَ له أنْ نزل، يوماً، إلى هذا المستودع ليذوق من زيتٍ في زير جديد، إذ شكري ذوّاقةٌ خبير في الزيت والزيتون. وخُلاصة القصة أن شكري حُبس هناك بضعة أسابيع ضُرب في أثنائها وهُدِّد مراراً، إذ كثيراً ما رفسه أحد الفتيان المسلحين وبيده موسى يُمِرُّها على عنق السجين المذعور ثم يُدنيها من عينيه يقول له: «دوْرك عن قريب؛» إلى أن أُتيح للمخطوف مَنْ أنقذه. فخرج من هناك وقد طالت لحيته طوْلَ الأيام والليالي التي قاساها في مُستودع المونة وذاق فيها، حقاً هذه المرة، زُوْمَ الزيتون، كما في المثل الشعبي اللبناني. ولقد أقسمَ لي شكري الخوري، وهو يروي قصة خطفه، أنه، من ذلك اليوم، أقلعَ عن الحلاقة بالموسى واستبدل بها آلة كهربائية للحلاقة والتزيين.

وهكذا فإن البيت الذي وُلدتُ فيه قد أمسى، في وقت من الأوقات، محكمة شعبية تقضي إما بالموت وإما بتخلية السبيل، ليس عندها من حلّ وسطٍ بين الحدَّين. وهكذا، أيضاً، فإن الشارع الذي استقبل مولدي بالتطبيل والزغردة قد بات، في وقت من الأوقات، ساحة يُساق إليها عشرات المخطوفين. كُنّا بيوتَ أُخُوَّةٍ وترحيب وسلام، فصرنا سجون عداوة وتعذيب وقتل.

ما قلتُه، إيجاباً وسلباً، في زقاق البلاط أقول مثله، أو أكثر منه أو أقلّ، في مناطق أُخرى من بيروت وسائر لبنان على وجه عام. إنّ ذلك لظاهرةٌ غريبة رُبّما دلّت، إذ البلاد في حُمّى الأهواء، على ضَعْفِ قلوب منّا وتخلُّفِ عقول وقعتْ وأَوقعتْ في حبائلِ وحشٍ وشريعةِ غاب. وإنْ أنسَ من شيء لا أنسَ صيحةَ الحاج

توفيق يموت إذ هجر زقاق بلاطه، شأن الكثر من أهلها، قال إن الحياة هناك عادت لا تطاق.

أما وقد وَفَّيْتُ زقاق البلاط قسطاً من حقها، في ما لها وفي ما عليها، فإني أنتقل، على هذا القصد، إلى بعض أيامنا في الصنائع.

كانت منطقة الصنائع، في ذلك العهد من أواخر العشرينيّات، أرضاً شبه خالية إلّا من عتيٍّ شجر الكينا وصغير الصبّار، جبابرة إلى جنبها أقزام. وكانت المساكن مُتباعدة قليلة، وحديقة الصنائع واحة وسْط الرمال، حاشا مدرسة الصنائع والفنون حيث، يومنا هذا، رئاسة الحكومة ووزارة الإعلام ومصرف لبنان؛ ولم يكن من شارع بين المصرف ودار الإذاعة. فلمّا برحنا زقاق البلاط فأقمنا بالصنائع، قيل إننا في بريّة. ولكنها بريّة بيروتية الروح، جميلة، ما عدا أيامها عند جنون الرياح الخمسينيّة في هبّات الربيع، إذ كان الرمل يهجم علينا مع تلك الرياح. فكُنّا في مِثل بادية مُتمدنة لمّا تُعبَّد طرقها ولمّا يصل إليهن الأرصفة والمجاري ولا نور الكهرباء حتى إن الجَوَلان ليلاً لم يكن ليُستأنَس به في أغلب الأحايين.

وأذكُرُ، في هذا الباب، أن الوالدين دُعيا، ذات ليلة من عام ١٩٣٠، إلى حفلة عشاء رسمية عند السيد يوسف حنا حنينه وقرينته. كان الداعيان يقيمان بشارع القنطاري، شارع ميشال شيحا اليوم، في منزلٍ رحبٍ هو أحد ثلاثة طوابق تُؤلِّف بمجموعها ما أصبح القصر الجمهوري في ما بعد، على عهد الرئيسين بشارة الخوري وكميل شمعون. وكان هذا البيت على مقربة دقائق من منزلنا؛ فخجل الوالدان أن يُسهرا سائق سيارتنا، ورأيا أن يعودا مشياً إلى المنزل. فلما انتهت الحفلة، بعد نصف الليل، خرج والداي مع سائر المدعوين. فبينما هما وحدهما في بعض الطريق، أمام جامع القنطاري، تصدى لهما جندي مغربي من جيش الانتداب وقد شهر حربةَ بندقية. فعاجله الوالد بضربةِ عصاً أطارت الحربة من قبضته، إذ العصا لا السلاح زينة الرجال في تلك الأيام. ثم هجم على الجندي وهو يُصَيّح عليه أعلى تصييح والجندي ينكفئ ويتوعد. فسمع الجلبةَ شيخُ الجامع وأهل بيته. فخفَّ وبعض أبنائه، وكانوا جميعهم بالمنامات البيض، فتعاونوا



على الجندي فأوثقوه ريثما تسلمتْه الشرطة. واعتذر الشيخ عن أن الحادث وقع أمام الجامع؛ وأبى ومَن معه إلّا أن يُماشوا الوالدين حتى وصلا إلى المنزل. ثم إن الشيخ زار أبي في اليوم التالي يُهنئه ويُكرّر الاعتذار. أما الجندي، فقد قضت المحكمة العسكرية الفرنسوية في بيروت أن يُسجَن عشر سنوات في إحدى الجزر النائية.

ولقد وقع في ذلك الوقت، على التقريب، حادثُ سلب طريف كان ضحيته وبطله، في آن معاً، الدكتور أيوب تابت وزير الداخلية، فأمين سر الدولة فرئيس الدولة في ما بعد، وصديق أُسرتنا القديم الحميم. وذلك أنه كان آتياً ليتعشى عندنا، وكثيراً ما فعل، وكان يُؤْثِرُ البيض المسلوق واللبنة والزيتون الأسود مع فنجان شاي وبعض الفواكه. فبينما هو في سبيله مشياً من منزله في الصنائع، وكان غير بعيد عن منزلنا، فَجأَهُ ثلاثة مُلثمين يُريدون سلبه. فجعلوا أيديهم عليه. فسألهم أن يرفعوها عنه فَيُسَلِّمُهم ما معه، فرفعوا. فناولهم حافظة نقوده، وكان فيها نحو خمس وعشرين ليرة. ثم أخرج ساعة جيبه، فرجا منهم ألّا يأخذوها لأن لها عنده قيمة تذكارية خاصة. وعَرَّفهم بنفسه، وقال إنه رَهَنَ ساعته هذه ثلاث مرات ثم استرجعها، إذ كان في نيويورك عام ١٩١٩ وقد احتاج إلى بعض الدولارات ليُبرق إلى مؤتمر الصلح في فرساي بعرائض تطالب باستقلال لبنان. وتمسّك أيوب تابت بالساعة وهَمَّ أن يُعيدها إلى جيبه. فما كان من المُلثمين إلّا أن ردّوا عليه حافظة النقود، فاعتذروا إليه وتواروا في الظلام.

تلك الليلة وصل الدكتور تابت، بخلاف عادته، مُتأخراً عن العشاء بعض الوقت، وكان بادي التأثر. فطلب على الفور كأس كونياك وأخذ يروي ما حدث له.

كان ذلك، وأمثاله، أيامَ طرقُ الصنائع والقنطاري حُفرٌ وأخاديد بلا أرصفة ولا إنارة. لكنْ أَشعَّ ثمة من أنوار النجدة والمروءة والوفاء ما لم نرَ عديله في ظلمات ١٩٧٥، فما تلاها، إلّا على أندر الأحوال، حتى إني كُلّما ذكرتُ خبرَ حادثَتي السلب هاتين، فقارنتُهما بقنطاريّاتِ ١٩٧٥ وما إليها، اقشعرَّ بدني وتجدَّد حزني على حبيبنا لبنان.



لستُ أقتصر، في هذا الصدد، على منطقة القنطاري دون سواها من المناطق التي عاثت فيها حربُ ١٩٧٥ ومُلحقاتها. إلّا أني عشتُ في القنطاري وربما كدتُ أُقتل هناك، فعلمتُ بما جرى فيها وبلوتُ منه أصنافاً وألواناً لا تقاس، مع ذلك، بما قاساه غيري.

ولا ندحة لي، إنصافاً للقنطاري، عن أن أُكَرِّر أن كثيراً من مناطق بيروت الغربية والشرقية وضواحيها ومن المدن والقرى اللبنانية الأخرى ذاق سُكّانها من ويلات الهول العظيم أضعاف ما ذاق القنطاريّون. ولكنني لم أَرَ ذلك ولا بلوتُه، وإن كنتُ قد سمعتُ عنه أشياء مروِّعة. أفمَن لم يرَ ولم يَبْلُ كمَن رأى وابتلى؟

لمَنْ يسألني ماذا رأيت وابتليت، أوردُ بعض الحوادث التي وقعتْ في القنطاري، على أنها مُفرَدُ الجمع الرهيب.

أول ما أُوردُ، في هذا النحو، أنه، في أواسط تشرين الأول ١٩٧٥، كانت القوات الفلسطينية وحلفاؤها تُعلن انتصارها، في معركة القنطاري وميناء الحصن، على قوات الكتائب اللبنانية وحلفائها. فانسحب هؤلاء إلى منطقة الفنادق الكبرى، فإلى الأسواق التجارية، ثم إلى منطقة المرفإ فتحصّنوا بها بضعة عشر عاماً.

أما الأسلحة التي استُعملتْ في معارك ١٩٧٥، فهي، إجمالاً، مما يُسمّى السلاح الخفيف، إذ لم نكن قد ارتقينا في صناعة الموت والتدمير إلى الدرجات التي ارتقينا إليها بعد سنوات التمرس بفنون الحرب وأساليب القتال.

ولقد احتفل المُقاتلون الفلسطينيون وأتباعهم بهذا الانتصار احتفالاً ليلياً مدوِّياً افتتحوه بحملة غزوٍ قبَليةِ النهب والغصب، عشوائيةِ التهليك والتفجير. فبدأوا بمساكن وبمحالّ تجارية في شوارع القنطاري وما يتفرع منها عموماً، ثم انتقلوا إلى غيرها. كان ذلك، على التدقيق، في ليل ١٢ تشرين الأول ١٩٧٥، يوم الذكرى العشرين لوفاة الوالد. فحمدنا اللّه على أنه رحم أبي فأعفاه من أن يرى ويُكابد ما قد رأينا وكابدنا في ليلنا ذلك المُسْتَبِدِّ الطويل.

أُقيمَ الاحتفال في القنطاري. فأُذيعت بمُكبِّرات الصوت أناشيدُ الظفر وأدعية التبريك. وأُطلقت العيارات النارية ساعات في الهواء ثم وصلتْ قافلة من



شاحنات فارغة إلى شوارع القنطاري وجوارها فوُقِفَتْ أمام أكثر البيوت والمحالّ، وخصوصاً أمام تلك التي كـان أُناسِيُّها قد انزعجوا عنها فراراً من الحرب، فلم يبقَ ثمة إلّا الأقلون. فأصاب الغُزاة الفاتحون مئات المنازل والمحالّ الفارغة بَشراً، الملأى غنائم. فأَخلوها، جهْدَهم، من مُحتوياتها التي نقلوها إلى الشّاحنات؛ أما ما خفَّ حَمْلُه، فرأساً إلى الجيوب. وكان تيّار الكهرباء مقطوعاً مُنْذُ بضعة أسابيع، فبتنا في ظلام يَتَخَلّله شَرَرُ القذائف وعيارات النار. ولكنّا، على حين بغتة، رأينا المنازل والمحالّ التي لا إنس فيها قد أنيرتْ دون سواها، بعد ما اقتحمها مُسلحون وهم يكسرون القفول ويخلعون الأبواب. فقالت الوالدة: «رجعت الكهربا، رجعت الكهربا.» فقلتُ لها: طوّلي بالك... وأطللتُ من شُرفة المنزل، فإذا الأنوار مصدرها بعض الشاحنات التي جُعل فيها مُولِّدات لطاقة الكهرباء. ثم لاحت لي بضع شاحنات وقد أخذتْ تتجه نحو بيتنا. فأدركتُ أن الخطر وشيك. فطرتُ إلى التلفون. فلبّى هذه المرة وكأنه شعر بالخطر. فاتصلتُ بالرئيس رشيد الصلح يقيناً مني أنه أخو نجدة إذا وعد أَنجز، ما استطاع. فقال: «بابك الحديد الخارجي الكبير يحميك وأهل بيتك ريثما تصل النجدة. لا تفتح للمسلحين مهما حاولوا ومهما هددوا. أنا، على الفور، قاصد مركز **المرابطون** لأُشرف بنفسي على إرسال النجدة في أسرع وقت ممكن.» فبينا كنت أشكره سمعتُ قرينته تقول: «في هذا الليل؟ والرصاص من كل صوب؟ أخاف أخاف عليك.» وذُكر لي، في ما بعد، أنه قال لها: «لا أقدر أن أترك خليل سركيس وأهل بيته في مثل هذه الساعة.»

وخفَّ رشيد الصلح بسيارته، ومعه حرسه الخاص، إلى مركز **المرابطون**. فَتَلْفَنَ لي من هناك يقول إن إبرهيم قليلات، قائدهم، يُحبُّ أن يُكلمني. فكلمني قليلات فقال إن النجدة قادمة في الحال. فسألته أنْ كيف أعرف المُنجدين من سائر المُسلحين المُنتشرين حول البيت. فقال: «على رأس المُنجدين شابٌ اسمه ماهر سيقول لك: يا خليل، ثلاث مرات، فتقول أنت له: يا ماهر، أربع مرات. واللّه معك.» وكانت شاحنات الغنائم قد وصلتْ، في أثناء ذلك، أمام منزلنا وفيها وحولها مسلحون. فأشار عليَّ جار، يُقيم بمنزل فوق طابقنا، أن أُطلّ عليهم من

الشرفة وبيدي مصباح كاز ليعلموا أن البناية مأهولة لعلهم يحيدون عنها. فما إن أطللتُ عليهم فَمَسَّيتُهم والمصباح بيدي حتى انطلقوا يرشّون واجهة منزلنا بعيارات نارية غزيرة استمرت بضع دقائق خلتُها دهراً ولبثتُ في غضونها مُنبطحاً على البلاط أَزحفُ، وسْطَ حطام الزجاج، إلى مُؤَخَّرِ المنزل، إلى حيث كانت قد فزعتْ أُمّي وزوجتي وابنتنا مي. أما ولدنا رامز، فكان قد سافر منذ أشهر إلى فيلادلفية ليتخصص في بعض علوم الاقتصاد.

تأخّرتِ النجدة ما يزيد على ساعتين كان المُسلحون في خلالهما قد أخذوا ينشرون بابنا الخارجي ويبردونه بعد ما عجزوا أن يحطموا ألواحه المُصفَّحة الكثيفة وأن يُفَجِّروا أقفاله الثلاثة الضخمة، إذ كانوا لا يزالون في مُبتدإ عهدهم بحرفة التحطيم والتفجير فأعْوَزَتْهم الخبرة في هذا المجال.

وأخيراً وصلتِ النجدة المُبارَكة، مُسلّحون في بضع سياراتِ جيپ يتقدّمهم شاب يحملُ مصباح يد ويُنادي في مكبّرٍ للصوت: «يا خليل» ثلاثاً. وكان المُعتدون لا ينفكّون يُعالجون باب بنايتنا بالمبرد والمنشار فنسمع الحزَّ ونحن في الطابق الثاني. فأطللتُ من الشرفة ومصباح الكاز بيدي، فناديتُ بأعلى صوتي: يا ماهر، أربع مرات. فترجَّل من سياراتِ موكب النجدة بعض الشبان فاتجهوا نحو المعتدين وكلموهم. ولستُ أدري ما قالوا لهم، على وجه التدقيق. فكفَّ المعتدون عن نشر الباب وبرْد الأقفال، وابتعدوا عن البناية؛ ثم انسحبوا بالشاحنات واختفوا. فلم نبقَ نسمع تحطيم أبواب وتكسير قفول بقيّةَ ليلنا ذاك. وكانت الوالدة قد تزنّرتْ بأكثر ما معنا في البيت من نقود، فاستلقت على سريرها، وطلبتْ إلينا أن نُخبرها عند «انتهاء الحفلة» لكي تنهض. وقام رئيس المُنقذين وبعض أعوانه بزيارتنا يُهنئوننا بالسلامة، والوالدةُ في السرير. فقال لي إنه كبير المسؤولين عن الأمن في القنطاري وميناء الحصن، وإنه لن يجرؤ أحد من المسلحين على أن يطرق بابنا من بعد اليوم، إذ أُمروا بالمحافظة على بيتنا وصون حرمته. فشكرتُه حقَّ الشكر، واسترعيتُ عنايته بأنه ليس المُهم أن يَسلم بيتنا دون غيره، بل المُهم أن تَسلم البيوت الأُخرى التي لم تصل إليها الأيدي إلى الآن. فقال ماهر: «نبذل جهدنا. ولكنْ، بصراحة، الأمور فالتة، ونحن لا نقدر أن نسيطر



على جميع المسلحين.» ثم حيّانا وخرج يتبعه أعوانه. فشعرتُ بأني أحرجتُهم بعضَ الشيء، فخرجتُ في إثرهم فأدركتُهم، فكررتُ الشكر لهم، وأبَيتُ إلّا أن أردّ زيارتهم فوراً. فأهّلوا بي إذ انطلقتُ معهم إلى مركز لهم في القنطاري. وسقوني من قهوتهم هناك؛ ثم عُدتُ وحدي إلى البيت، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحاً. فوجدتُ زوجتي وابنتنا تنتظران رجوعي وهما في أشد حالات القلق خوفاً عليّ. وما لبثنا طويلاً حتى تذكّرنا أن الوالدة لا تزال في السرير... فطرْنا إليها نُعلمها أن الحفلة قد انتهت. فنهضتْ وسألتْنا أنْ كيف نسيناها طوْلَ هذا الوقت ولِمَ لم ننبِّهها عند وصول النجدة حتى تُسَلِّم على الضيوف وتُقَدِّم لهم الحلوى مع شراب التوت.

فلما كُنّا من الغد، زارنا الرئيس رشيد الصلح، والشوارعُ قد خلتْ إلّا من أفواج المُسلحين. فشكرتُ له نجدته وجرأته وصداقته، ولا سيما أنه يعرف أنني لا أُوافقه على كثير من آرائه ومواقفه. فاستخبرني يُريد الأمر مُفَصَّلاً. فأخبرتُه بما وقع لنا، من ساعة الهجوم علينا إلى ساعة ردّي الزيارة للمنقذين. فاستغرب شجاعتي على أن أزورهم بعد نصف الليل والحالُ على ما هي عليه. فقلتُ له: هي الكرامة أُمُّ الشجاعة. وأضفتُ أن الضَّنَّ بالكرامة يمنعني أن أهرب إلى منطقة أخرى. فإذا أُكرهتُ، يوماً ما، على أن أبرح شارع سپيرز، برحتُ لبنان. فتأثر رشيد الصلح وهو يُصغي إليّ إصغاءً تاماً؛ ثم أَعلمني أنه بينا كان يُشرف على إرسال النجدة إلينا، كانت البناية، التي تسكن شقيقته منزلاً منها في شارع كلمنصو، يسطو عليها مُسلحون نهبوا وأحرقوا، ما طاب لهم أن يفعلوا، ليس مَنْ يُنْذِر ولا مَنْ يمنع.

ولقد استمرت أعمال النهب أياماً، ليل نهار، بلا رادع ولا رقيب، وخصوصاً بعد هدم الحبوس وإطلاق السجناء. فعمَّتِ المدنيين الأبرياء هواجس الخوف والخيبة والقنوط. فعُقد اجتماع في منزل الرئيس تقي الدين الصلح للنظر في الخطر المتفاقم. وكان من الذين حضروا: الرئيس أحمد داعوق، والوزير السابق يوسف سالم، والأطباء يوسف حتي وفيليب صهيون وفؤاد أبو ظهر، والتاجر حسن النصولي، والبقّال فوزي بلعه، وإسكاف من آل ريشاني، وغيرهم من بقايا سكّان القنطاري وميناء الحصن وجوارهما. فاقترح أحد المدعوين أن تُؤلَّف

لجنة إنقاذ شعبية. وما أَزال أسمع الدكتور حتي يقول، وفي صوته كثير من المرارة: «يا إخوان، لا تُضيّعوا وقتكم باللجان. فإما أن في البلاد سلطة، إذاً لا حاجة إلى هذه اللجنة؛ وإما أن لا سلطة في البلاد، إذاً اللجنة كلام في كلام. يا إخوان. اتكلوا على اللّه. أنا لا أريد أن أُدفَن في لبنان.» فانتهى الاجتماع كما ابتدأ.

وازدادت حوادث القتل والغصب والسطو، فازداد الناس، هناك، تقلُّباً على الذعر والرُّعب لم يدروا بمن يستنجدون ولا متى ولا من أين يأتيهم الفرج.

وكان مما وقع، في ذلك الوقت من خريف ١٩٧٥، حادثة شهدناها، أنا وزوجتي، من شرفة منزلنا. رأينا شاباً أسيرَ حرب قد قبض عليه مُسلحان، فعصبا عينيه وكبَّلا يديه وراء ظهره، فجعل أحدهما يدفعه بفوهة رشّاش، والآخر يلبطه. فقال أحد المُسلحين لرفيقه: «اقتلْه وخلِّصنا منه.» فقال المسلح الآخر: «لا، بل نُسلّمه للمحكمة (أي محكمة المسلحين) فتبتّ مصيره.» فقال الأول: «اقتلْه، وبعد ذلك نُحيله على المحكمة.» فما إن مرّت بضع دقائق حتى سمعنا عيارات نارية سريعة، ثم بصرنا بجثة قد رُبطتْ ساقاها بمؤخَّر سيارة جيپ انطلقتْ تُسابق الريح، والجثةُ يلطم رأسُها الحضيض، فإذا هي جُثّة الأسير الذي قُتل ثم حوكم. فلما وصلت السيارة إلى شارع عبد القادر، شرقيّ مركز الصليب الأحمر اللبناني عند أول جسر فؤاد شهاب، فُكَّ عن الجُثّة، فأُلقيتْ على دولاب مطاط، ثم أُشعلتْ فيها النار، فلبثنا زهاء يومين نشمّ رائحة اللحم المشوي.

وأخذتْ تَفِدُ على المنطقة، في ذلك الوقت أيضاً، عصابات شرٍّ مُنَظَّم تعرف ما تريد وأين تقع على ما تريد. فَخَطَّطَتْ ما صممتْ عليه تخطيطاً مُحكماً مدروساً مُوَزَّعَ الأدوار، كأنما وراء ذلك كلِّه عُقولٌ مُدبِّرة وسواعدُ تنفيذ. ولُحِظَ، في بعض الأسابيع، أن النقمة هبّت تنصبّ على مخازن التحف الفنية والأثرية والأثاث. فاغتُصبتْ وعُرّيتْ من محتوياتها ثم نُسفتْ وأُحرقتْ. فلما حاول الإطفائيون أن يُخمدوا النار ويحسموا الخراب، قوبلوا بالرشاشات، فانكفأوا وكفّوا عن التلبية لطلبات المُستغيثين.

وكان أحد تلك المخازن غير بعيد عن دارنا. فشاهدنا، وسْط رماده، مُسلحاً في نحو الخامسة عشرة يحمل على كتفه مدفعاً صينياً، وينتعل قبقاباً،



ويرتدي سترة بلايزر كحلية اللون جديدة وبنطالَ دجينز أشبه بالأسمال. فألقى عنه المدفع فوضعه على بقايا الرصيف، أمام المخزن المُدَمَّر، وأخرج قدميه من القبقاب، ثم انطلق يرقص على حطام الزجاج رقصةً قد تُذَكّر، في الظاهر، رقصةَ زُورْبا وإن لم تكن على شيء من براءتها. وكان الدم يسيل من قدمي الفتى وهو لا يبالي.

قال الفتى لبعض من حوْله إنه هو وأمثاله سوف يقتلون مُؤسّسات لبنان، وعلى جُثَّتها يرقصون؛ وإنهم بالدم يفدون الثورة حتى النصر. فسأله شاهدٌ مِن أهله أنْ مَن علَّمه ذلك، فقال: «الأيام علَّمتنا. مضى علينا ألف سنة ونحن ننتظر هذه الساعة التي نقدر فيها أن نُحطم ونحرق أشياء كثيرة حكمنا عليها بالموت. ما أجملَ الرقص على جُثث الأعداء!» فقال له الشاهد: «اللّه يعافيك يا ابني.» فقال الفتى: «حلّ عني، يا عم، قبلما أقتلك.»

٥

تلك القصص الحيّة التي عانيتُها فَرَوَيْتُها في بعض ما سبق، يتجسد فيها من بديهيّات الأغراض وخلفيّاتها، ما يدُلّ، عندي في الأقل، أن حرب لبنان هي، أساساً، ميدان لاصطراع حضارتين أو ثقافتين، بالمعنى الشامل العميق للحضارة وللثقافة على أنهما طريقة حياة في طبيعة عيش.

المُهاجمون هم، بتبسيط من رأيي، الراغبون في التغيير بأي ثمن كان. والمُدافعون هم الراغبون في التطوير اعتقاداً منهم أن لبنان لا تُوائمه الثورات والانقلابات خوفَ أن ينهار على الجميع، أمُهاجمين كانوا أم مُدافعين.

ولو حاولتُ أن أصف حرب لبنان، رُبّما جاز لي تَكرارُ القول بأنها كانت، في جولاتها الأولى، حرباً لبنانية وفلسطينية، ثم غدت حرباً عربية وعربية، ثم أمست حرباً أهلية. ذلك كله على مراحل مِن تنازع الغرب والشرق، فضلاً عن تنازع الشمال والجنوب، هُنا وهُناك وهُنالك.

ولا يغيب عني، في كل حال، أن على حدودنا الجنوبية أَوْقَحَ مُغامرة آبْتُلي بها القرن العشرون: إسرائيل. ولا يغيب عني، أيضاً، أن لإسرائيل تمام أدوارها في مأساة حرب لبنان، وقبل المأساة، وبعدها.

فبات لبنان، إذ هو في مهبّ من الصراعين، الصراعِ العالمي والصراع الإقليمي، أرضَ رهان وشعبَ استشهاد. فسَقطْنا دولةً. وسَقطْنا وطناً. وكدنا نسقط شعباً لولا حيوية كانت أقوى من الموت. أقول ذلك بصراحة القلم الجريح الذي فقد الأعزّ: رجاءَهُ اللبناني. فعاد لا يخشى إلّا اللّه ولا يخاف إلّا الهوان.



كم ساءلتُ نفسي كيف استطعتُ أن أحتمل ما قد احتملتُ فلم أَرحل فوراً مُنذُ البَدْء. فأجبتُ نفسي بنفسي أقول إنّي بقيتُ في لبنان ما دامت الكرامة مَصونة فيه. حتى إذا أوشكتْ أن تُمَسّ، اغتربتُ وبيتي على ظهري، وظهري على... فقيل إنني جبنتُ فهربتُ. فقلتُ إن مَن ضنَّ بكرامته أن تُذَلّ، أُوتي شجاعةً ربما جنحتْ به إلى آفاق التهور والجنون، أو، على الضد، إلى حدود الجبنِ والانهزام. لقد تهورتُ حتى الجنون لمّا قاومتُ الرصاص. وشجعتُ حتى الجبن لمّا أدركتُ أن الكرامة أضحت لا تُصان إلّا بالاغتراب.

ولكنني لم أُسافر وحدي، بل سافرتْ معي تلك القصص الحية التي اختبرتُ بعضاً منها وأُخبرتُ بعضَها الآخر. وكثيراً ما طرقتْني هواجسها فأيقظتني وأطبقتْ عليّ، فَقُمْتُ أصرُخُ في الليل أستغيثُ منها بها، حتى إني لم أجد مندوحة عن أن أُدوِّنها لعلي أستريح من همّها في بعض الأيام.

وأراني أذكر، ههنا، من تلك القصص ثلاثاً لا تفتأ تُعاودني فتضغطني كأنها كوابيس أشباح.

القصة الأُولى رواها لي صديق من طرابلس واستحلفني أن أكتم اسمه. وخُلاصتها أنه كان في أحد المُخيّمات، في الشمال اللبناني، فلسطيني ضرير له عزوة وتأثير في قومه وبيئته. فألَّف، في داخل القوات المسلحة هناك، ميليشياه الخاصة للخطف والتعذيب حتى الموت. فكان إذا أُتي إليه بالأسير، أَمرَّ يديه على بدنه، يلمسه فتراً فتراً، من أعلى الرأس إلى الأخمصَين، يُريد أن يَتَعَرّفَهُ وكأنه يقول في نفسه آعرفْ عدوّك، ثم أمر فتيانه أنْ «للتنفيذ.» وأمرُ التنفيذ، هذا، معناه رمحٌ يُدْخَلُ في استِ الأسير فما يني يُمْعَنُ فيه حتى يبدو رأسُ الحربة من جهة العنق أو الكتف؛ ثم يُوضَع الأسير على النار فيشوى كما يُشوى الفرّوج. وكان ذلك الضرير يستلذ شميم اللحم المشوي، لحم ضحاياه وهم يحترقون. ولكنْ حتى قومُه تعبوا منه في النهاية فقضوا عليه.

ولا يخفى أن هذا الأسلوب الساديّ قابلتْه مُعاملة مُساوية له في المعسكر المضاد. فقد روى لي صديق من سُكّان المنطقة الشرقية، وهذه هي



القصة الثانية، أنه كان إذا قُبض على فلسطيني فعُلِمَ أو اشتُبه أنه من مخيَّم الضرير في شمالي طرابلس، بيع الأسير في مزاد علني خاص يُقام عند جسر المعاملتَين، غير بعيد عن بلدة جونيه. وكان في دفتر الشروط، إن جاز التعبير، أن يتقاسم الفلسطينيَّ الأسيرَ شاريان يُؤدّيان ثمنه إلى صندوق المُنظمة اللبنانية ذات العلاقة. ثم يتسلّمانه؛ فتُوثَق إحدى ساقَيه بمؤخرة سيارة أحد الشّارِيَيْن، وتوثَق الساق الأخرى بمؤخرة سيارة الشاري الآخر، ثم تنطلقُ كُلُّ سيارة منهما في اتجاه مُضاد لاتجاه الأخرى ومعها شطرٌ من الأسير، وسْط هتاف الجمهور في جوّ يَسودُه روح التشفي والانتقام.

ذلك وجهٌ للعنف الذي يُوَلِّده العنف، وللحقد الذي يُوَلِّده الحقد؛ بل ذلك هو الهَدّام الأكبر الذي يقتل روحَ اللّه في الإنسان، كلِّ إنسان على التقريب.

ولكنْ قيل مراراً ـ وهذا، في رأيي، قولٌ حق ـ إن من يذود عن أرضه معذور في جنبِ من أتانا لاجئاً، فما لبث طويلاً حتى غدا وله كلمته فينا، في مصيرنا. فابتنى شبه دولة على خراب دولتنا، فبتنا لاجئين في بلادنا وبلاد سوانا.

ذلك كله، فضلاً عن غيره، هو من الأمور التي لا يسعنا أن ننساها بالهَيِّن. فحين يزعم قائد فلسطيني أن طريقه إلى القدس يمر ببلدة جونيه اللبنانية، وحين يُستعمل الفلسطيني في لبنان لأغراض سياسية محلية، وأغراض عربية، وأغراض أجنبية، وحينما نرى في اللبنانيين، بمُقابل ذلك، من استعان بإسرائيل، نجد أن مُعظم المُتصارعين في لبنان قد باعوا أنفسهم لألف شيطان وكأنهم لم يلتقوا إلّا عند شيء واحد: القضاء على لبنان كما عرفناه، بل كما عرفه العالم من قبْل عهد فُرساي إلى ما بعد عهد يالطه.

... أما القصة الثالثة ـ لا الأخيرة ـ فهي غريبة في بابها. وفحْوى القصة أن السيد منير جبر، أخاً لنا مُسلماً وصديقاً لولدنا رامز، وقع في حاجز أقامته قوات الكتائب اللبنانية وحلفائها في منطقة ميناء الحصن، يومَ سبت بيروت الأسود، في أواخر ١٩٧٥. كان مُسلّحو الحاجز يَقِفونَ السيارات فيسألون الركاب وسائر المارّين عن هوياتهم. فمن اشتبهوا فيه أنزلوه ودققوا في أمره، فاعتقلوه ثم قتلوه، أو لم يعتقلوه فأذنوا له أن يمضي؛ وذلك بحسب مجرى التدقيق وهوى المُدَقِّق.



وكان منير جبر يجتاز بسيارته من هناك، فوقَفها بالصف الطويل ينتظر دوره ومصيره. فتناول جريدة **لوريان ــ لوجور** التي كانت معه، فجعل يقرأ فيها يُمَوِّه خوفه بظواهر ثقة واطمئنان. حتى إذا وصل إلى الحاجز، والجريدةُ الفرنسوية اللغة على مقود السيارة، نظرَ مسلح إلى السيد جبر وإلى الجريدة في لحظةٍ معاً، فقال له بالفرنسوية: «Passez» أي مُرَّ. قال منير وهو يروي لي قصته: «لمّا رآني المسلَّح أقرأ **لوريان ــ لوجور**، حسبني مسيحياً، كأن المسيحيين، دون غيرهم، يقرأون باللغة الفرنسوية.» هكذا نجا شاب عزيز وَصَلَتْنا بأسرته روابط المودة منذ أيامنا في زقاق البلاط.

ذكرتُ تلك القصص لا على أنها في نوادر العصر، بل لكونها تدلّ إلى أين انتهينا. ورُبَّ سائل قال: «متى متى الخلاص؟» قد يكون الجواب هو أنّا انحدرنا إلى دركات لا صعود لنا منها إلّا بأُعجوبة في زمان تخطى واقعةُ أزمنة الأعاجيب. ذلك ما قلتُ وكَرَّرْتُ لستُ أزعم أني صنوُ أشعيا. ولكنْ من استقرأ مُعضلة لبنان، أدرك أننا أمسينا بلداً تُجرى علينا فيه اختبارات سياسية وعسكرية وعقائدية شتى؛ ولا أقول اختبارات ثقافية، لأن الثقافة، بمعناها الحضاري، شبه غائبة عن حياتنا العامة.

هذا الغياب، كما أرى، هو ممّا شارك، إلى حدود الجهالة، في فراغ الأُميّة الثقافية التي ما نزال نضطرب في أزماتها. بديهيّ أن الثقافة، جوهرَ قوامِنا، ينبغي أن تكون خبزنا اليومي. فلو عَمَّتِ الأكثريّاتِ، أكثرياتِ لبنان ومُعظم الشّرقَيْن الأدنى والأوسط وسائر العالم الثالث، لأبعدتْ عنهن السنواتِ العجاف وأخطارَ المجاعة. ولستُ أغلو حين أزعم أن الثقافة في بُلدان ذلك العالم ما تبرح، في الإجمال، طلاءً ندهنُ به سطحياتنا لنُظهِر أننا مُثقّفون؛ بينما في سلوكنا العام والخاص براهين على كوننا، في أغلب الأحوال، بدائيين مُتخلفين لا نعرف كيف نُقارب أنفسنا وآخرينا وسوانا، ولا نعرف كيف نُعالج أمورنا، ولا كيف نُعامل ونتعامل. قيلَ مراراً إنني متشائم. فكان جوابي واحداً في كُلّ مَرّة وهو أن البلد الذي تبقى فيه الثقافة أجنبيةً عن سيرته، يصعب عليه أن يواجه تحديات التاريخ مُواجهةً إيجابية مسؤولة.

لبنان حيوان تجاري أولَ كُلِّ شأن، تجاريٌّ في معيشته وحياته، تجاريٌّ في



سياساته وطائفيّاته وفي سائر شيئياته. الروح التجاري هو الذي يُوَجِّهُنا. على الجُملة، في القطاع العام وجُلِّ القطاع الخاص. وراء معظم المشاريع السياسية والعُمرانية والاجتماعية، فضلاً عن المشاريع التربوية، وما إلى ذلك كُلّه، مقاصد نفعية. حتى نكباتُ البؤس والشقاء موضوعُ متاجرة. المُهَجَّرون، ولا سيما في المناطق الغربية، وفي بيروت الغربية خاصة حيث قاسيتُ أربع سنوات من حربنا القذرة، كان كثير منهم مادة يُتاجِرُ بها سماسرة يُهَجِّرون بعض الناس فيُحِلّون محلّهم بعض الناس الآخرين. فمن أبى أن يُهَجَّرَ، لم يَنْجُ من مُحاولات الضغط والإكراه، وليس أقلَّها الخطف والقتل.

وعندي، في هذا النحو، قصة حية وقعتْ حادثتها في منزل جار لنا هو شارل فابيا، المحامي الفرنسوي وأُستاذ القانون. فإذا أسهبتُ فيها وفي ما حوْلها، فلأني أجد ذلك كُلَّه خليقاً بالإسهاب. ولا ريب أن الذين يعرفون لبنان القانون والحقوق يذكرون الرجل. كان فابيا من مُؤَسّسي معهد الحقوق الفرنسوي في بيروت. وقد أقام في لبنان ما يربي على نصف قرن. وصل فابيا إلى بيروت في أوائل الانتداب عام ١٩٢١. فرافق لبنان في مُخْتَلِفِ مراحله، وأحبه أيما حب. ولطالما قال لأصدقائه إنه يُريد أن يُدفن في «أرض لبنان الطيبة الكريمة التي حضنتْني وكأنها أمّي الثانية، فَهِمْتُ بها بعد ما عرفتُها منطقة فمنطقة، من الغرب اللبناني إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب؛ وهِمْتُ بشعب لبنان على تَعَدُّدِ فئاته ونزعاته. إنني أُحِبّكم، معشر اللبنانيين، كما أنتم. أُحبّكم بمزاياكم وعيوبكم، وقد لقيتُ عندكم من آيات الترحيب والضيافة والسخاء ما قلّما عُرف لدى غيركم من الشعوب.» بقي الأُستاذ فابيا زُهاء أربعين سنة مُستأجراً منزله في إحدى بنايتَيْنا بشارع سپيرز. وكانت العلاقة بينه وبيننا، طوال تلك السنين، علاقة مودة وصداقة، لا علاقة مُستأجر بمالك؛ وذلك لبضعة أسباب أوّلُها أن الرجل كان في مُنتهى الرُّقي وغاية الشعور بالحق والإنصاف. كان فابيا مشتأجراً على عقد قديم، أي إن الإجارة قد يُسمّى بدلها رمزياً. ولكنه أبى إلّا أن يُضاعفه في الأقل يقول لي: «أرجو منك أن تقبلَ هذه الزيادة، فتُريحني، فأنامَ مُطْمِئَنَّ الضمير.»

أوائلَ صيف ١٩٧٥، وقد هبّتْ حوادث لبنان تشتدّ، فتمتدّ حتى بلغتْ



منطقة القنطاري، أعلمني فابيا أنه، جرياً على عادته، مُسافر إلى مسقط رأسه بفرنسة فيقضي هُنالك إجازته بعيداً عن الجو الخانق الذي أَطبقَ علينا في شارع سبيرز وسائر المنطقة. وقال إنه سيرجع في تشرين الأول القادم؛ ورجَّح أن تكون قد هدأت الأحوال وسُوِّيَتِ الأُمور، إذ لم يسبق أن طالت الحوادث في لبنان مهما تعقدتْ. فقلتُ له: أُستاذي، أنت سيد العارفين؛ فعسى أن تكون على صواب. ولكني أخشى أن تستمر الحوادث، هذه المرة، مُدّة أطول مما رجَّحتَ. فقال: «يا عزيزي، أنت مُتشائم جداً. هذا طبعٌ فيك يُريك الأبيض أسود.» ثُمَّ ابتسم ووصّاني بطاهيته المُسِنّة؛ وكان معها رفيقة تعمل في النهار ثُمَّ تعود مساءً لكي لا تقضي الطاهية الليل وحدها في المنزل. فقلتُ له: الجار قبْل الدار. وكان للطاهية هرّة مَثّلَتْ دورها في قصتنا هذه. كانت الطاهية تقول لي: «هرّتي رفيقتي في النهار؛ وناديا، مُمرّضة في عيادة الطبيب جورج صليبي، رفيقتي في الليل.»

أخذتْ أزمة لبنان تتفاقم حوادثها، جولة في إثر جولة، فاستمرت إلى ما بعد تشرين ١٩٧٥، خلافاً لما كان يُرَجّح الأستاذ فابيا الذي لم يرجع، في عامنا ذلك، إلى بيروت. ثم وافى شتاءُ ١٩٧٦ والأُمور على ازدياد تعقد واستفحال. فانقضت بضعة أيام لم نرَ فيها الطاهية ولا رفيقتها الممرضة. فحسبنا أن اشتداد القصف المدفعي على القنطاري قد اضطرهما أن تنتقلا إلى منطقة الحمراء عند بعض الأصدقاء؛ حتى بصرْنا، ذات صباح، بالهرة على درابزون شرفة المنزل وقد تلطّخ فمها وشارباها بالدم. فساورَنا الشك والخوف. فَتَلْفَنَتْ والدتي لشقيقة الطاهية، وكانت تعمل في الجامعة الأميركية، فأخبرتْها بما يساورنا. فاتصلت الشقيقة ببعض أركان الميليشيات التي كانت تحكم المنطقة. فبعثوا إلينا بضعة شبان من مُسلّحيهم ومعهم سلّمٌ خشب، فهمّوا بأن يتسلقوا البناية من الخارج لأن بابها الحديد كان مُقفلاً، ولم يكن يسكنها في ذلك الوقت إلّا الطاهية والمُمرّضة والهرّة، إذ إن سائر سكان البناية كانوا قد برحوها فراراً من القتال. فقال لي أحد المسلحين: «نحن لا نُحِبُّ أن نكسر الباب الخارجي ولا أن نخلعه.» فقلت له: ما هذا أول باب ترعون حرمته، ولكن أُجيزُ لكم كسر الباب فوراً، فقد يكون الأمرُ أَمْرَ حياة أو موت، ومن الأفضل دخول المنزل رأساً بدلاً من تسلّق البناية والهبوط

من السطح أو من جهة القرميد. فقال: «بإذنك نكسر الباب.» قلت: نَعم نعم. فكسر البابَ الحديد الخارجي ثم خلع بابَ المنزل في بضع دقائق. فما دخلنا حتى شَمَمْنا النتن. وإذا جُثّتان على أرض الدار وسْط بقعة من الدم الجاف، وإذا الهرّة مواءُ حُزْنٍ وذُعْرٍ وشبهِ جنون، فما كادت ترى مخرجاً حتى فرّت. فاتصل المسلحون بمخفر الشرطة. فوصل شُرطيان. فعاينا الجُثّتين، فأجازا أن تُدفنا. فوضعهما أحد المسلحين في كيس نيلون شفّاف ومضى بهما إلى مدفن عام.

وكان ممّا استرعى نظري أن أحد الشُّرطيين قال: «نُنَظّم محضر معلومات.» فقلت له: فقط لا غير؟ فقال: «نحن نعرف الذين يقتلون في المنطقة، ولكن لا سُلطة لنا ولا قُدرة حتى نقبض عليهم. ولو كنا نقدر، لما عرفنا أين نضعهم. السجون مهدومة والمخافر تحت رحمة المسلحين. ونعرف، أيضاً، أن من يُهَدَّد فلا يهجر بيته، يُقتَل في الغالب إن لم يكن له من يحميه. منزل الأستاذ فابيا، بعد مقتل المرأتين، مُرَشَّح للاحتلال في القريب عن أيدي أناس تقاسموا المنازل الشاغرة في المنطقة فلم يُجيزوا احتلال منزل إلّا إذا قبضوا الثمن. منزل فابيا ثمنُ احتلاله هو، في سوق اليوم، زهاء خمسة آلاف ليرة.»[١]

ذلك مثال للفضيلة التي انتهينا إليها في حربنا القذرة. ولقد كان أفلاطون يبني جمهوريته على الفضيلة، ويبني الفضيلة على العدل. فلما قال لي الشُّرطي ما تقدَّم سردُه، هجستْ بنفسي أفلاطونيات الفضيلة والعدل على أنهما أساس كل شيء في إيجابيات العام والخاص.

وتداعت عليّ تلك الهواجس ألوانَ صُورٍ وذكريات. فبعثتْ فيّ كلاماً للوالد على نجيب أبو صوّان الرئيس الأول لمحكمة التمييز في لبنان ١٩٣٠. كان أبي يقول إن نجيب أبو صوّان هو القاضي الأفضل إذ جمع الثلاث: المعرفة والنزاهة والشجاعة. فكان إذا استوى على منصة القضاء، شعرنا بأن العدالة قد استوت معه. وإذا مرَّ بساحة قصر العدل[٢]، والمحامون مُتَحَلّقون تحت الشجرة

(١) زُهاء ألف وستمائة دولار بسعر عام ١٩٧٦، وزُهاء خمسة دولارات بسعر عام ١٩٩٠.
(٢) قصر العدل القديم، في جوار باب إدريس.



التاريخية، وقفوا احتراماً له وقد أيقنوا أن العدالة تمرّ في موكبه، موكبه الفرد، إذ أبو صوّان هو برأسه موكب مستقل، وأدركوا أنهم في حضرة رجلٍ إنسان يُقَدّسُ الحق ويُجِلّ القانون، يجتهد فيهما اجتهاداً يستند إلى روح الشرائع وإلى حَرْفها في موضوعيةِ حكمٍ ووحدةِ قصد. ولطالما ردَّد الوالد أنْ ويلٌ للبنان إن لم يكن العدل فيه على المستوى الذي تَشَرَّفَتْ له أحكام أبو صوّان.

لما سمعتُ كلام الشُّرطي على محضر المعلومات وتوابعه، تَذَكّرتُ، في تداعي هواجسي تلك، أنني، لسنوات سبقتْ حرب لبنان، كُنتُ قد عزمتُ على ألّا نقيم فيه إلّا زُهاء ستة أشهر من كل عام، وأن نُقيم في الخارج الستة الأشهر الأخرى. وكان قد بدا لي، منذ تلك الأيام، أنه لم يبقَ في وُسْعِ الإنسان منا أن يُقيم في لبنان طوال اثني عشر شهراً من غير أن يشعر أنه مُتخلّف. أقول ذلك بصراحةٍ من مضى على أُسرته في موطن الأرز مئات السنين. وكان في ما عزمتُ عليه وما وافقتْني فيه جون، زوجتي وشريكة حياتي، هو أن نَتّخِذَ أروبة مُقاماً لنا في الخارج. وأروبة معناها، عندنا، أروبة الغربية، لأن بُلدانها، إلى اليوم، هي، في رأينا، من خيرِ البُلدان التي يحيا فيها الإنسان في سَعَةٍ من الحُرية تصون الحق والكرامة، وفي عُمْقٍ من الثقافة يُشِيع أسباب التمدن والرُّقي.

لا يخفى أن في بُلدان أروبة، وشأنها شأنُ غيرها من البلدان، سلبياتٍ جمّة. ولكن في أروبة مُقَدَّسَةً تعلو على ما سِواها: الحُرية، الحُرية في عصمة الإنسان سليلِ الخطيئة. ولا يخفى، أيضاً، أن في بُلدان الشرق، وشأنُها شأنُ غيرها من البلدان، إيجابياتٍ جمّة. ولكنْ ليس في الشرق مِثلُ تلك المُقَدَّسَةِ، وإن يكن عند الشرقيين من آيات الفضائل ما لم يألفه الغربيون على العموم، وأجملُهنّ الانفتاح والعفوية والقِرى وبشاشة الوجه والقلب وسخاء اليد واللسان.

إنتقدَ عليّ موقفي، هذا، مُستشرق هولندي إذ قال إني أُغَرِّبُ حتى الغُلوّ. فقلتُ له ـ ولسواه ـ إنني شرقيّ، شرقيّ قديم، شرقيّ مِن غرب الشرق. ولسوف أبقى شرقياً قديماً ولو صرتُ من شرق الغرب.

فلما تفاقمتْ حرب لبنان، فبدا لنا ـ للوالدة ولزوجتي ولي ـ أننا في نفق مسدود، صممنا على الهجرة. فبرحنا لبنان في شتاء ١٩٧٩، على ما ذكرتُ من



قبْل. ولـم تكن آتيات الأحداث إلّا لتثبت صواب ما أقدمنا عليه، وقد بتنا، نـحن اللبنانيين، أعجز من أن نـحكم أنفسنا بأنفسنا حكماً مستقلاً حراً كريماً، وغُدْنا ليس لدينا من ظواهر السيادة سوى مُرَمَّماتٍ مُبعثَرةِ الأجهزة والأدوات قلباً وقالباً. فأدركنا أنَّ خلاصنا لـم يبقَ بأيدينا وحدنا، وأن شيطان التحديات، في مراميه الدولية والإقليمية، فضلاً عن مُرتزقاته المحلية، قد غدا هو الحاكم بأمر سلاحه عندنا في جورِ عبثياتٍ غريبة الدواهي، أجنبية الأحوال. أما أكثريتنا الصامتة، فِلْسُنا الأبيضُ لليوم الأسود، فلم يبقَ لها في أرضنا مِن سميع معين. وأما حيويتنا المأثورة، فقد أمست مآسيها تـحت الأنقاض، برغم من تُراثِ مـجدٍ طالـما تَغنّينا بـما سلف من أحلامِ عزه وقد شربنا نخبها فَخَدّرتْنا؛ ولكنْ ما لبثنا طويلاً حتى عرَّينا أنفُسنا منها، إذ وَعَينا ما انتهينا إليه من حالاتِ احتضارٍ سريع وبطيء في شيء معاً.

من خلال ذلك كله بدا لنا، نـحن سواد الـمُعذَّبين، أن لبنان، أو ما بقي منه، قد أخذ يتقلص في بلايا تـمزقٍ وتفتتٍ وشبه زوال. فأضحى، على العموم، وهو أقرب إلى مُجَيْتَمَعات عزلة وتناقض مع اطرادِ قهر وضياع وازديادِ فقر وتـخلف وحرمان.

وبدا لنا، أيضاً، أن الشرقَ الأدنى، شرقَنا، شرق الأبيض الـمتوسط، رُبّما أُريدَ به، في ما أُريدَ، أن تذوب هويته في حرائق الشرق الأوسط الذي أجَّجتْه أزمات الـمدّ الآسيوي وفجّرتْه النكبات الـمُبَرْمَجَةُ، في الأكثر، بحَسَبِ مُخطّطات لإسرائيل ولغير إسرائيل.

فلـم يبقَ من شجرٍ عندنا ولا من أرضٍ بَشر. عُمْرُنا، جُرْحُ تاريخنا، حياةُ فقر ورثناه من فُتاتِ عصر الـحجر أو مـمّا قبْل. شعبُنا يتيـمُ سلْـمٍ وحَرْب، سلْـم انقطاع وحربِ ضياع في عَبَثٍ من قَدَرٍ غير مجهول الأبوين. ألفُ سنة ضوئية، لا أكثر، تفصلنا عن عصر الفضاء وحضارة القمر.

أفيُستغرَب، مِن بَعْد ذلك كُلّه، أن نكون قد اغتربنا؟

ولقد اخترنا الـمملكة الـمتحدة لنا مُقاماً إذ وجدناها من أدنى البلدان إلى سجايانا، فضلاً عن أسباب خاصة أوّلها أن وحيدَنا رامز وأهلَ بيته قد استقروا في لندن.



ولـم نتفرد برأينا في أروپة، وفي الغرب، وفي الاغتراب، بل ألْفينا كثيراً من اللبنانـيـين والإخوان العرب قد رأوا ما رأينا على التقريب. فعملوا، كُلٌّ في سبيله، ما عملنا في هذا القبيل. وإني أذكر منهم، مثلاً لا حصراً، تحسين قَدْري.

ولِمَنْ مِنَ الجيل الطالع، فمَنْ قبْلَهُ، لا يعرف مَنْ تحسين قدري أقول إنه كان قُنصلاً عاماً للعراق في بيروت قبْل الحرب العالمية الثانية، وكان لبنان لا يزال في عهد الانتداب. فلما نال لبنان استقلاله في تشرين الثاني ١٩٤٣، غدا تحسين قدري أول سفير للعراق فيه. وكان من الذين شاركوا في الإعداد لهذا الاستقلال وفي التأييد له على الصعيدين العربي والدولي. كان قدري صديقاً للشيخ بشارة الخوري، وصديقاً حميماً لرياض الصلح. وكثيراً ما جرتْ بينهم اتصالات بعيدة المرامي اشترك فيها بعض رجالات مصر والسعودية وسورية والعراق، وغيرها من البلدان، دعماً للبنان في مواقفه الاستقلالية.

أَحَبَّ تحسين قدري لبنان واللبنانيين حُبّاً عميقاً؛ وطالما قال إن لبنان وطنُه الثاني وإن السنين التي طواها فيه هي من أسعد أيامه. والرجل من صفوة الذين رافقوا فيصلاً الأول عند تأسيس المملكة العراقية. كان قدري داهيةَ سياسة، سريعَ الفطنة، قليلَ الكلام. وآخِرُ منصب وُلِّيه هو رئيس الديوان الملكي في عهد فيصل الثاني الذي كان قد بعث قدري، أوائلَ تموز ١٩٥٨، في مهمة بأروپة والولايات المتحدة. فوقع انقلاب عبد الكريم قاسم والمبعوث غائب عن العراق. ولولا ذلك لكان مصير قدري كمصير ملكه الشاب وسائر الذين قُتلوا في انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨.

وهكذا بقي تحسين قدري في الخارج. فاتّخذ سويسرة مقاماً له. ثم زار لبنان في ربيع ١٩٧٠ بعد غياب عنه طويل. فاتّصل بأصدقائه في بيروت، وتَلْفَنَ من فندق برستول حيث نزل فقال لي إنه يُحبُّ أن يزور والدتي، إذ كان هو وقرينته صديقين لوالديّ. فزارنا وترحّم على أبي، ثم قال: «أنا عايش بسويسرة من سنة ١٩٥٨، عايش وحدي. الغربة مع الوحدة شيء صعب، شيء كئيب. لبنان بلدي. أهْله أهلي. أتمنى السكن في لبنان. علاقتي بأهل سويسرة هي: «بونجور مسيو كذْري، أُرڤوار مسيو كذْري»، لا أكثر ولا أقل. لا بيوت مفتوحة. لا لقاءات

حميمة. هذا من حق السويسريين في بلادهم. أما في لبنان، فحيثما أذهب أجد القلوب مفتوحة مع كوني جاوزتُ الثمانين. الإنسان يُحبّ أن يحيا مجبور الخاطر والشعور وخصوصاً في أيام الشيخوخة.»

ثم قال لنا ـ للوالدة ولزوجتي ولي ـ إنه مُتَوَجِّه غداً إلى بلدة بيت مري يُريد أن يشتري منزلاً هناك وقد نوى أن يقضي في لبنان بقية العمر. فما انطوى الأسبوع حتى تَلْفَنَ لنا تحسين باشا يقول إنه يُحِبُّ أنْ يُوَدّعنا قبل رجوعه إلى سويسرة. فوصل بعد زهاء ساعة فقال بصوت خائب: «أنا راجع إلى المنفى. بونجور مسيو كدْري، أُرڤوار مسيو كدْري أفضل من الإقامة في لبنان.» فاستوضحتُه الأمر. فقال لي ما معناه: أما تَرَوْنَ أحوال البلاد؟ ألا تَرَوْنَ المُخيّمات التي تُطوّق بيروت وضواحيها، زيادة على المُخيّمات في مناطق لبنانية أخرى؟ إنها مُخيّمات البؤس، مُخيّمات الثورة الآتية. هذه المُخيّمات سَتُفَجّر لبنان. ويبدو لي أنها ربما أُعِدَّتْ، أو أنها ستُستغَلّ، للقضاء على لبنان كما عرفناه فأحببناه. لبنان مُهَدَّد بهذه المُخيّمات لا لأن أهلَها أسوأ مِن غيرهم، بل لأنهم من سُلالة الحرمان. وُلدوا مُشَرَّدين. وعاشوا، إلى يومنا، مُشَرَّدين. لكنهم لن يموتوا مُشَرَّدين. مُعظمهم فلسطينيون. لبنان، بالنسبة إلى مساحته وعدد سكانه، يحمل أبهظَ ممّا يَسَعُهُ أن يحتمل من أعباء هذا الضغط المُتشعب الأزمات. جيل المُخيّمات، مُخيّمات ١٩٧٠، لا يرضى بعيشة الظلم والظلام، بينما حوْلَه مدينة بل مُدُن مُزدهرة كلها ترفٌ وبذخٌ في النهار والليل. كُلُّ قوة دولية أو إقليمية تَقْدِرُ أن تُثير أولاد المُخيّمات، فَيُؤَدّون ما يَرَوْنَهُ واجباً لكي يحصلوا على حقوقهم من البلد الذي يعلمون أنه لم يسلبهم هذه الحقوق. ولكنهم، مع ذلك، يُعلنون أنهم، في ثورتهم بلبنان «حتى النصر»، إنّما يُدافعون عن قضية فلسطين، بينما هم، في الحقيقة وفي الواقع، يُدمرون لبنان الذي آواهم، أو يشتركون في تدميره، من غير أن يُحرروا فلسطين.

ذلك بعض ما قاله لنا تحسين قدري عند لقائنا الأخير. ثم ودّعَنا وعاد إلى سويسرة حيث تُوفّي عما يُقارب التسعين. فكانت كلماته نبوءة أُخرى تُضاف إلى نُبوءات تَوَقَّعَ أصحابُها أن يقع في لبنان أكثرُ ما وقع أو بعضُ ما وقع.



ثم إنه، في شتاء ١٩٧٣، اتصل بي الصحفي جبران حايك، ـ الذي أوْرَثْتُهُ هموم ثلاثة أجيال سركيسية من **لسان الحال** إذ تَنَزّلْتُ له، في أوائل ١٩٦٠، عن امتياز الجريدة، ـ فقال لي ما هذا معناه: رَجَعْتُ، منذ أيام، من رحلة ستة أشهر قضَيتُها في الولايات المتحدة أستطلع كثيراً من أصحاب الرأي في الموقف الدولي عامة، وفي أحوال الشرقَيْن الأدنى والأوسط خاصة، وفي حالة لبنان على الأخص. فاستنتجتُ من ذلك كله أن لبنان مُرَشَّح لحرب ستلتهم أخضره ويابسه، وتهدم مؤسساته، وتُودي بقيَمه، وتُشَرِّد الأُلوف من أهله وسكانه. كثير من الذين مضى عليهم، أباً عن جد، مئات السنين في لبنان سيهجرونه. وكثير من الذين لجأوا إلى لبنان على أنه بلدهم الثاني، سيُشَرَّدون مرّة ثانية، أو ثالثة، فيبرحون لبنان، إن استطاعوا، ويُقيمون في بلدان أُخرى. إن الأشهر الستة التي سلختُها في الولايات المتحدة أتّصِلُ بأركان الدُّور الإعلامية العالمية وسواها، قد أيَّدَتْ يقيني أننا، في لبنان، على عتبة أحداث أخشى أن يُراق فيها الدم أنهاراً إلى أنهار. وعندي أن الأقليات، في الشرق العربي عامة وفي لبنان خاصة، سيُضحّى بها في ذلك الصراع الذي يتعدى لبنان وقضاياه. إن المؤامرة التي بلغني أنها تُعَدّ لضرب لبنان، ـ وحايك، في ما أعلمُ، هو من أوائل الذين استعملوا لفظة **مؤامرة** في هذا النحو، ـ لا يُقصَد بها حلّ قضايا المنطقة بدءاً بقضية فلسطين، قدْرَ ما يُقصَد بها إثارة قضايا جديدة تُعَقِّد مُستقبل فلسطين ولبنان وسائر المنطقة.

تلك خُلاصة ما قاله لي جبران حايك قبلما اندلعتْ حرب لبنان بسنتين وبضعة أشهر. فأَخبرتُ عندئذ بعض الأصدقاء بنُبوءة حايك أقول لهم لندوّنها كي نرى أَتصْدق أم لا.

فلما كُنّا في شتاء ١٩٧٥، اتصل بي جبران حايك، ذات يوم، فقال: «ورد عليّ نبأ بأن ساعة الصِفر قريبة. إشارة صغيرة أو كبيرة قد تكون هي النذير.» حتى إذا اغتيل الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، عامَنا ذلك، قال لي حايك: «الأظهر أن هذه الجريمة هي الإشارة والنذير. الملك فيصل أبى أن يُجاري الذين ائتمروا بلبنان، وأبى أن يُسفَك فيه الدم البريء وغير البريء، فاغتيل الملك فيصل.»



وسبق أقوالَ حايك في ما أُريدَ بلبنان أخبارٌ أطلعني عليها الأخ الصديق جوزف زعرور[١] في ربيع ١٩٧٣، وفحواها أنه وردتْ على الأجهزة الحكومية المُختصة معلومات تُنذر بأن بعض القُوى والمُنظمات الدولية والإقليمية تستعد لإثارة حوادث عُنف في بلد ما في الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط. وقال لي زعرور إن تلك القُوى والمُنظمات تنوي أن تُقيم «حفلة» تدريبية تمهيداً للمعركة أو للمعارك التي عزمتْ أن تخوضها في البلد المُعَيَّن، أو غير المُعَيَّن، لأن أخبار زعرور لم يُذكَر فيها اسم البلد وإن يكن في المُرَجَّح أن لبنان هو ذلك البلد المحظوظ.

وفي الواقع جرت، عام ١٩٧٤، في الجامعة الأميركية في بيروت، حوادث عنف. فحوصر رئيس الجامعة وبعض كبار أساتذتها في مسكن الرئيس وفي الأبنية المجاورة له. ولم يستتبّ الأمر إلّا بعد بضعة أسابيع. وقد زُرْتُ الجامعة على أثر تلك «الحفلة»، وجلتُ في بناية الساعة المعروفة بِ **كولدْج هول**[٢]، فرأيتُ آثار العُنف على الجدران وفي المكاتب. والغريب أن القُوى اليسارية الموالية لبعض الأنظمة العربية، وأن القُوى اليمينية المُتطرفة الموالية لإسرائيل كانت على شبهِ تحالف في أثناء تلك الحوادث التدريبية على العظائم التي أحرقتْ لبنان.

ولقد اتَّضَحَ لكثير من المُراقبين المحليين والعالميين أن الحوادث التمهيدية التي وقعتْ في الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٧٤، ثُمّ في عين الرمانة بضاحية بيروت في نيسان ١٩٧٥، فضلاً عن الحوادث التي سبقتْ ذلك والتي تلتْه، إنما ذكّى أغلبَها التعصبُ الديني وقد أُوقِظَ بأساليب علمية بعيدة الأغراض. ولو شئنا أن نختصر حرب لبنان بآفة واحدة، لربما قلنا: التَّعصُّب.

بديهيّ أن التعصب الديني، هذا الداء القديمَ قِدَمَ العالم، والحديثَ حداثةَ الحياة ومُبتكَراتها، لا يقتصر على لبنان وسائر بلدان الشرق دانيها وقاصيها.

(١) كان زعرور، في مرحلة من السبعينيات، المدير العام لوزارة الدفاع الوطني في لبنان.

(٢) College hall.



ولكن التّعصّب تفشى بمُخْتَلِفِ القارات في بُلدان أَنشأتْ تبني قوميتها على نقيض القومية، أي على التّعصّب. كم من حركات طائفية مُتعصّبة الاتجاهات شرعتْ تعمل حيث لم يكن أحد ليظن أنه يمكنها أن تعمل. فقد كانت تلك البلدان علمانية في ظواهرها بالأقل. حتى إذا انتشرتْ فيها جراثيم التعصب، وما نشأَ عنه شرقاً وغرباً إلى جنوب وشمال، وجدنا الطائفية قد اتّخذتْ لها أشكال أحزاب سياسية، ومُنظّمات شعبية، ومؤسسات اجتماعية، وأندية ثقافية، وما إلى ذلك.

ولبنان لم يَنْجُ من تلك التجربة؛ بل كان، بحسب عادته، رائداً من كبار روّادها، على صغر مساحته وقلة سكانه؛ فكأنما هو يؤْثر الطليعة ولو أودتْ به. وكما كان لبنان موطناً للطليعة في عصر الانبعاث، ويُسميه بعضهم عصر النهضة، كذلك بات لبنان موطناً للطليعة في عصر هو مِن أشد عصور التعصب فتكاً وفِتَناً. فمن يُنكر عليّ هذا القول، يُنكر حقيقةً لنا واقعية أليمة.

٦

زعمتُ، في بعض ما سبق، أن الثقافة عندنا ما تزال، في الإجمال، غريبة عن جوهر حياتنا وعن واقع وجودنا. فكأن الثقافة هي العُنصر الدخيل أو، في الأكثر، النسيب الفقير حتى لدى بعض الذين يُحسَبون في عداد النُّخبة. فهم بشفاههم يُكَرّمون الثقافة لا بعقولهم وقلوبهم، إلّا على النذْر الزهيد.

في تلك الأيام، في النصف الأول من الستينيات، كان الموسيقي وليد حوراني قد ابتدأ يلمع اسمه ونجمه ونبوغه المبكر. فبذل والده أقصى طاقته ليُعَرِّف به. وكان مما عمل أبو وليد، في هذا القصد، أنه أقام في منزله، في راس بيروت، حفلة عَزْف بالبيانو تولت تنظيمَها الموسيقيةُ ديانه تقي الدين مُعَلِّمة وليد. فكانت الحفلة، في بابها، من أروع الحفلات عَزْفاً وتنظيماً وجواً فنياً حميماً. وأذكر من بين الذين حضروا الحفلة شارل مالك وكمال جنبلاط وميخائيل نعيمه وقسطنطين زريق وميشال أسمر وسواهم. وكان مقعدي بجوار كمال جنبلاط. فقال لي إنه قرأ مؤلَّفي **مصير**، فأشار على المعنيّين بالشأن الثقافي في الحزب التقدمي الاشتراكي أن يقرأوا ويُقرئوا هذا الكتاب، مع أني لست من أنصار الحزب. واستدرك يقول: «لا بأس عليك ما دُمْتَ لا تتعاطى السياسة.» ثم التفتَ إليّ وقال: «عندي سؤالان. السؤال الأول: هل ترى أنه في الإمكان ترجمة مؤلفات تيلار دو شاردان إلى العربية؟ السؤال الثاني: هل يُمكنك أن تُؤلّف رسالة على شكيب أرسلان مثلما ألّفتَ على أمين آل ناصر الدين؟ (يُريد رسالتي **وصية في كتاب**). فقلت: أُجيب أولاً عن السؤال الثاني. يسُرّني أن أضعَ هذه الرسالة إذا حصلتُ على المواد الأدبية اللازمة، أي النصوص غير المنشورة لكتابات الأمير



شكيب، صديقِ جدي وأبي، وتلميذِ النّسيب الشيخ عبداللّه البستاني. ثم اقترحتُ أن أُلحِق بالرسالة عملاً يدرس الأمير عادل أرسلان. فشكرني جنبلاط وقال إنه سيسعى للبحث عن تلك المواد. ثم سألني: «لماذا الأمير عادل؟» فقلتُ إني اطلعتُ، يوماً، على صفحةٍ من نثر عادل أرسلان، ولستُ أذكر أين وقعتُ عليها ولا متى، فوجدتُها من أجمل صفحات النثر العربي بساطةً عريقة طريفة لا تدري أنها تَصْنَعُ شيئاً كبيراً. وعندي أن كتابات عادل أرسلان ـ مقالاته ورسائله ـ يجب أن تُنْشَر قبْل فوْت الأوان(*).

فنظر إليّ كمال جنبلاط نظرة هادئة مطمئنة، وابتسم ابتسامَتَهُ المُتَحَفِّظَةَ العاليةَ الأنف، وبدا كأنه يُريد أن أُجيب عن سؤاله الأول في شأن ترجمة دو شاردان إلى العربية. فقلت له إن ميشال أسمر، مدير اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، أفضل من يجيب، هنا، عن هذا السؤال. وأومأتُ إلى أسمر، فدنا منا؛ وكان ميخائيل نعيمه يسمع الحديث. فقال نعيمه بصراحته المعهودة: «أعترف لكم، يا أخوان، أنني لم أقرأ شيئاً من مؤلفات تيلار دو شاردان، ولكنْ قرأتُ عنه في بعض الجرائد والمجلات العربية التي ٱبتدأتْ تذكره في الآونة الأخيرة.» فقال له أسمر: «هذا ثاني اعتراف لك. الاعتراف الأول كان في سنة ١٩٥٦، لمّا نَشَرَت **الندوة اللبنانية** كتاب **صوت الغائب** وفاءً لذكرى ميشال شيحا. فبعثتَ يومئذٍ برسالة إلى خليل رامز سركيس، مُؤلِّف الكتاب، قلتَ فيها إنك، قبلما قرأتَ **صوت الغائب**، لم تكن تعرف شيحا إلّا بالاسم.» فقلتُ لأسمر: ألا يكفي شيخنا الأستاذ نعيمه فضلاً أنه صادقٌ في هذا الاعتراف؟ هناك اعترافات غير صادقة أُثِرَتْ عن بعض المشاهير. إن الصدق هو، أيضاً، من الفنون الجميلة.

هنا انطلق أسمر يُجيب عن سؤال جنبلاط في شأن ترجمة تيلار دو شاردان. فقال إن اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع تستطيع، باتفاق مع اليونسكو، أنْ تضطلع بهذا العمل الكبير إذا أُتيحت له الموارد المالية اللازمة. وقال إن لدى تلك

(*) بلغني، بعد ما فرغتُ من **الهواجس الأقليّة**، إصدارُ كتاب **مذكّرات الأمير عادل أرسلان**، تقديم الدكتور **يوسف إيبش** وتحقيقه، (**الدار التقدمية**، المختارة، لبنان).



اللجنة الطاقة البشرية، ولكن يعوزها المال. ثم أسهبَ يقول ما هذا معناه: عندنا مُترجمون بارعون يقدرون أن يترجموا مؤلفات دو شاردان مع كونها صعبة جداً، ومع كونها تستدعي مَراجع اصطلاحية مُتخصصة وتدقيقات فلسفية عميقة، لأن تيلار ابتدع كلمات وتعبيرات أدبية وشعرية وفلسفية جريئة إلى حد بعيد. وختم أسمر يقول إن ذلك عملٌ طويل قد يستلزم ربع قرن مالاً ورجالاً. وكرَّر، مِثل عادته، أن ما يعوز العمل هو المال لا الرجال.

أنصت جنبلاط لأسمر إنصاتاً عميق الصمت، بعيد التفكير، ثم قال إن تيلار دو شاردان قمة من أعلى قمم العصر، وينبغي أن يكون له جناحه في المكتبة العربية. وتمنى لو يمكن ضمان المال اللازم لهذا العمل العظيم، وخصوصاً أن مئات ملايين الدولارات تُنْفَق في المنطقة، فتذهب ذات اليمين وذات اليسار. فقال أسمر: «الواقع أن مئات الملايين التي تُنْفَق في المنطقة لا تُنْفَق، إجمالاً، لمصلحة المنطقة ولا لمصلحة الثقافة في المنطقة.» فهزَّ جنبلاط رأسه علامة الموافقة. وبعد قليل انتقلنا إلى جو الموسيقى، إذ ابتدأ وليد حوراني يعزف والحضور في سكوت.

فلما أنهى المعزوفة الأولى والثانية، صفَّق له المدعوون تصفيق استحسان. فرجع إليّ ميشال أسمر يقول: «غريب، عجيب! نعيمه لم يقرأ دو شاردان.» فقلت: ليس الغريب أنه لم يقرأ تيلار، بل أُكرِّر أن العجيب هو اعترافه بأنه لم يقرأ تيلار. وهذا شيء نادر، وخُصوصاً لدى مُفكرينا وأُدبائنا على العموم. فقال أسمر: «ألا تذكر ما جرى لك مع أُستاذ قانونيّ شهير يومَ نُشر كتابك **صوت الغائب**؟» فقلت إنني أذكر ذلك ولا أنساه أبداً. فنظر إلينا كمال جنبلاط يُريد أن يعلم ما جرى لي. فقلت له: لا أُعلنُ اسم الأُستاذ الشهير، وهو صديق لك، وربما كُنتَ تتلمذت له في القانون، ولكن أكتفي بالخبر. وذلك أنه لما نُشر **صوت الغائب**، تَلْفَنَ لي الأُستاذ القانوني فهنأني وقال إنه قرأ الكتاب حرفاً حرفاً، من أول صفحة إلى آخر صفحة، فازداد معرفة بوالدي. فاستغربتُ هذا الكلام، ولكن صبرت عليه حتى أَسمع نهايته. فقلت: أُستاذَنا، ماذا أَعجبك في **صوت الغائب**؟ قال: «وصفُك رامز سركيس.» قلت: أيّ شيء



أعجبك أكثر من غيره؟ قال: «المطْلع حيث كتبتَ «ليعَد ترابه إلى التراب وليبقَ لنا صوته الحي،» وصفحة بأواسط المؤلَّف تذكر فيها مواقف والدك الوطنية.» قلت: أين قرأتَ ذلك كله؟ قال: «في **صوت الغائب**.» قلت: بكل احترام أَلْفِتُ عنايتك، حرصاً مني على صحة معلوماتك، إلى أن موضوع **صوت الغائب** يدور على ميشال شيحا لا على رامز سركيس. وليس في الكتاب من إشارة إلى والدي ولا من ذكر له على الإطلاق. **صوت الغائب** خُلاصة فكرية تختصر شيحا المُثقف الإنساني، وتُقَدِّمه إلى قُرّاء العربية. كان شيحا من مُثقّفينا القليلين الذين يقرأون مؤلفات الآخرين، فيكتنهون ما يقرأون، ويَصدقون في ما يقولون. وعلى كل حال، إني أشكر لك، أُستاذَنا الكبير، تلفونك وأدعوك إلى أن تقرأ **صوت الغائب**، وبعد ذلك تُبدي رأيك فيه.

قال كمال جنبلاط: «في الحقيقة، هذا شيء مؤسف ومؤلم.» قلت: هذا أُستاذ جامعيّ يتصدر في كثير من المجالس الثقافية والحلقات الدراسية، ويُستشار في كثير من القضايا القانونية والدقائق الدستورية، ولا يتورّع، مع ذلك، عما أُسمّيه الدجل العلمي. فأين الأصالة؟ وأين النزاهة الثقافية؟ إن قصة القانوني الجامعي لَتؤيد رأيي أن الثقافة عندنا ما تزال، في الإجمال، على السطحيات العامة والخاصة. وذلك هو الجهل المُرَكَّب الذي يُشارك في التمكين لعلل التعصب فنوناً وألواناً.

ولئن كنتُ قد تكلمت على التعصب، فإني لم أَعنِ قط أن الدنيا، دنيانا، قد خلت من نقائضه. ويطيب لي أن أذكر، هنا، بعض المُشاهدات التي تُخالفه.

أُمي روز رزق سركيس وُلدتْ في مدينة حمص، في سورية، عام ١٩٠١، وتُوفيت بلندن عام ١٩٩٠. والداها عبد المسيح رزق وپلومْنيه حموي. الأُسرتان، آل رزق وآل حموي، من الأُسر الأرثوذكسية القديمة في حمص. انتقلت الأُسرتان، عدا أقليةً منهما، إلى بيروت في أوائل القرن العشرين، فتلبننتا[١]

(١) فعلُ تَلَبْنَنَ، هنا، هو بمعناه في أوائل القرن لا في أواخره.



شأن كثير من الذين انتقلوا إلى لبنان من بعض البلدان القريبة، أو البعيدة، فاستوطنوه.

وهو معلوم أن والدي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٥) كان إنجيليّاً أباً عن جد، وأنه كان شيخاً في الكنيسة الإنجيلية التي وطّد أُسُسَها في بيروت جدُّ والدي لأُمّه المعلم بطرس البستاني، والتي نالت استقلالها عن الإرسالية الأميركية في اجتماع تاريخي عُقد في بيت جدي خليل سركيس، فأصبحتِ الكنيسة الإنجيلية الوطنية. ولكن، مع ذلك كله، لم يُفاتح الوالدُ أُمّي قط في مذهبها الأرثوذكسي، ولا في كيف تُربّينا ـ أي كيف تُربّي شقيقتيّ وتُربّيني ـ من جهة الدين، ولا سألها قط هل تُحب أن تنضم إلى الكنيسة الإنجيلية. وكانت الوالدة، من تلقاء نفسها، تُرافق أبي إلى الكنيسة الإنجيلية في زقاق البلاط، أيامَ الآحاد. فمرَّ على ذلك زُهاء خمسة وعشرين عاماً لم تتناول فيها أُمّي الخبز والخمر لأنها لم تكن عُضواً في الكنيسة الإنجيلية التي لا تُجيز تناول الخبز والخمر، أو ما يُسمّى عندنا «الاشتراك»، إلّا لمن هو عُضو فيها مثبَت قد أعلن ولاءه لنظامها واعتناقه عقيدتها. وهذا أمر كانت عمدة الكنيسة، في ذلك الوقت، تتمسّك جداً بالمحافظة عليه.

فعانت الوالدة حرمانها الروحي ما استطاعت أن تُعانيه. ثم هبّت فجأة، ذات يوم، فقالت لأبي: «في الحقيقة، لم أَبقَ أرثوذكسية ولا صرتُ إنجيلية. أنا في منطقة حياد بين المذهبَيْن. هذا لا أرضى به مِن بعد اليوم. أُريد أن أتناول الخبز والخمر. أُريد أن أنضم إلى الكنيسة التي مضى عليّ ربع قرن وأنا أَحضر خدمة العبادة فيها أكثر أيام الآحاد. ولكنْ هُناك عائق يمنعني عما أريد.» فقال الوالد: «ما العائق؟» قالت: «خلاف بينك وبين صهرك عزيز الخوري. لا أقدر أن أنضم إلى الكنيسة التي صرتُ أشعر أنها كنيستي فأتناول فيها الخبز والخمر ما دام بينكما هذا الخلاف الذي يُؤلم شقيقتك ساميه ويُؤلمني. أنا أعرف وأنت تعتقد أنك على حق وصواب. وصهرك يعتقد أنه على حق وصواب. لكن الضحية، هُنا، هي المحبة التي بدونها لا أرى جوهر الدين والإيمان.» قال الوالد: «فهمتُ. أنت المرأة الفاضلة التي عناها الحكيم بأمثاله. سأعمل بحسب رغبتك.» قالت: «الآن



نذهب إلى صهرك نزوره ونُصافحه ونُصالحه فعلاً لا قولاً. عند ذلك أنضم إلى الكنيسة الإنجيلية فيحق لي أن أتناول جسد المسيح ودمه.» وهكذا كان.

ليس لهذه القصة الدارجة علاقة مباشرة بالتعصب الذي تقدَّم لي الكلام عليه. بَيْدَ أن في هذه القصة إشارات إلى نقيض التعصب، التعصب لدين، أو لرأي، أو لأمر من الأُمور. النقيض، هُنا، هو التّسامح والانفتاح محبةً، وقد تَجَلّيا عندنا، في البيت، في أروع لقاء عفويّ، شبهِ مسكوني إن جاز هذا التعبير المُكَبَّر.

كان ذلك في خريف ١٩٤٠. وكانت الوالدة قد زلّت قدمُها، فكُسرتْ ساقها، فجُعلت الساق في الجص بضعة أشهر. فعاد أمي الكثر من أصدقاء الأُسرة وصديقاتها. وكان المُطران أغناطيوس مبارك، رئيس أساقفة بيروت للطائفة المارونية، يعود أُمّي، الأسبوعَ بعد الأسبوعين أو الثلاثة، فيُصلّي لها ومعها ويتلو آيات من الكتاب المقدس. فبينما كان يعودها ذات مرة، والوالدان يُنصتان له في خشوع، إذْ وصل الشيخ محمد توفيق خالد، مُفتي الجمهورية الأكبر، ومعه الشيخ محمد علايا الذي خَلَفَهُ على رأس دار الفتوى. فأكمل المُطران مبارك صلاته بعدما حياهما. فما كان من المُفتي الأكبر إلّا أن أبدى رغبة في أن يُشاركا في الصلاة. فبدأها بالفاتحة، ثم تلا آيات من القرآن الكريم، من سورة مريم على ما أذكر، وختم بدُعاء لشفاء «السيدة أم خليل» ولتوطيد أواصر المودة والسلام بين أهل البلد. ثم تبعه الشيخ علايا بصلاة محبة بليغة. فردّ المُطران مبارك بصلاة حمد وشكر. فتأثر الوالدان جداً، حتى إن أبي قال: «هذه أول مرّة تُقام فيها في لبنان، ولو على وجه خاص، صلاة إسلامية مسيحية مُشتركة يتولاها قائدان روحيان كبيران وشيخ فاضل جليل.»

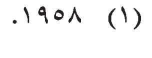
هذه النادرة، البسيطة والمُركبة في وقت معاً، فحْواها، عندي في الأقل، أنه، على مستوانا الخاص المحدود، يمكن أن تُزَكّى أسباب الوئام وتُنفى دواعي التعصب. لستُ أعني أن الخاصّة في لبنان غَيْرُ مُتَعَصِّبة، بل أعني أنها تعرف كيف تكبت تَعَصُّبَها، وكيف تُسيطر عليه، فلا تُتيح له أن يعصف بها. وكثيراً ما قامت تُغَلّفه بأشعرة الوفاق والوحدة الوطنية. ولكن إذا هبّت رياح التَّعَصُّب على الجماهير ـ وشياطينهُ تعرف كيف تجعل من الشعب جمهوراً، ومن الجمهور قطعانَ جماهير

قد حُظِّر عليها التفكير إذ الذهول هو القاعدة العامة المفروضة ـ أقول إذا هبّت تلك الرياح، فالعياذ بالله من دواهي التَّعَصُّب. أليس هو مِن شر العلل التي تُبَدِّد، وتشرِّد، فَتُفْضي بلبنانيٍّ وبأهلِ بيته، مثلاً، من زقاق البلاط فالقنطاري إلى كنسنغتن؟

لما نُشر مؤلَّفي **من لا شيء** في أوائل ١٩٥٨، عامِ فتنة تمهيدية مذكورة في تاريخ لبنان، زارني في منزلنا في بيروت الشيخ نديم حسين الجسر، وكان يومئذ عُضواً في مجلس النواب اللبناني قبلما أصبح مُفتي طرابلس والشمال. دخل الشيخ الجسر وبيده **من لا شيء**، فقال: «جئتُ أزور **من لا شيء** زيارة تؤكد وتوطّد علاقاتٍ مُتوارَثَةً نتمسّكُ بها جداً على أنها بعض من تُراثنا الوطني ولو في المُستوى الخاص. فَقَدْنا، لثلاث سنوات مضت، المرحوم رامز؛ ولكن والدتك حيَّة والحمدلله، وأنا أُحِبُّ أن أراها لأنها حَرَمُ صديق لنا قديم.» فدعوتُ الوالدة. فَرَحَّبَتْ بالزائر الكبير وحَيّته تحية الصداقة الموصولة بين آل جسر وأُسرتنا، من أيام والده الشيخ حسين الجسر وجدي خليل سركيس إلى أيام شقيقه الشيخ محمد الجسر وأبي، فما بعْد.

دار الحديث، أول الأمر، على **من لا شيء**، فأَوْلاه الشيخ الزائر من سخاء قلبه ولسانه ما أخجل تواضعي. ثم ذكر أنه يُؤلِّف كتاباً عنوانه **قصة الإيمان** وسيُهدي لي نسخة منه حينما يُنشر. وتكلم بعد ذلك على الحالة العامة في لبنان، فقال ما هذا مضمونه: ليس في الأُفُق ما يُشَجّع على التفاؤل بالخير حتى نجده. أرى أشياء غريبة ومواقف مُستغرَبة لدى كُلّ فئة من فئات البلاد. فإن لم يَسَعْ أحدنا الآخر، جنحت الحوادث والأحداث بنا جميعاً إلى أسوإ الأحوال.

ثم توجّه بكلامه إلى الوالدة فقال: «أعتقد أن عليكم أنتم أن تَسَعونا لأنكم أُوتيتم من الوسائل والمُمكنات ما لم نُؤْتَ مثلَه نحن.» فقالت الوالدة: «ما المقصود بـ «أنتم» و«نحن»؟» قال: «أنتم معناه المجتمع المسيحي، ونحن معناه المجتمع المسلم. مُجتمعكم أُتيحَ له مُنذُ الانتداب الفرنسوي إلى اليوم[1]، لا بل مُنذُ قبْل الانتداب، ما لم يُتَحْ لمُجتمعنا؛ فسبقتمونا. ومن كان في المُقَدِّمة،


(١) ١٩٥٨.



وَجَبَ عليه أن يتريّث انتظاراً لمن وراءه، وإلّا لم يكن لكم، ولا لنا، خلاص مِن تَخَلُّفنا. سؤال بسيط: إذا أَرَدْتِ أن تركبي سيارة سرفيس في شارع المعرض فرأيت سيدة مُحَجّبة في مقعد السيارة الخلفي، وسيدة غير مُحَجّبة في المقعد الأمامي، فأين تقعدين؟ الأرجح أنك ستقعدين بجوار السيدة غير المُحَجّبة. لماذا؟ لأننا، في وجه عام، لم نتعود أن نتجاور، فنتحاور، ونتعايش التعايش الحق، الصميم. أكثرُ تعايشنا ظواهر ومُجاملات؛ أما في الجوهر، فإن كُلّ فئة منكم ومنا جزيرة مُستقلة بأنانيتها، مُنفصلة عن غيرها.»

قالت الوالدة: «الدين المعاملة؛ والمُصارحة الإيجابية هي من أفضل الطُّرق إلى التعايش الصحيح.»

قال: «لو تُهيّأ لنا جميعاً مُمكنات مُتساوية فننطلق كُلّنا من أساس واحد.»

فقلتُ: إذا أذنتَ لي، يا صاحب السماحة، ذكرتُ مثلاً لتساوي المُمكنات لا النتائج. إنه مثل بسيط، قريب، وإن كانت له دلالة مُرَكّبة، بعيدة.

قال: «تفضَّلْ، يا أستاذ.»

قلت: عندنا، في بيروت، ظاهرة عُمرانية واضحة هي شارع المعرض. والمعلوم، على ما كان يقول فؤاد أمين عبد الملك كبير المهندسين في بلدية بيروت، وسواه، أن هذا الشارع قد عَمَر ونما وازدهر على أساس «٦ و٦ مُكَرَّر»، بحَسَب تعبير اللغة الطائفية في لبنان. فكان بالشارع، وفقاً لهذا الأساس التقسيمي، منطقة أكثريتها مسلمة، ومنطقة أكثريتها مسيحية. فيا صاحب السماحة، إذا كنتَ تنوي، مِن بعد زيارتك لنا العزيزة الكريمة، أن تذهب إلى مجلس النواب في ساحة النجمة، في وسط شارع المعرض، فأرجو منك أن تجول في هذا الشارع فترى الفرق بين منطقة ومنطقة، مع أن المُنطلق كان واحداً في الأُسس والمُتاحات. وأُرجِّح أن هذا الفرق ليس ناشئاً عن تفاوت المُمكنات بقدر ما هو ناشئ عن هُوّة حضارية بين الفئتين الكبريين؛ ولا بد لنا من الاعتراف بأن لبنان اليوم لبنانان غير متجانسين. وما دُمنا على هذه الحالة، وما دامت إحدى الفئتين لا تُريد أو لا تقدر أن تتطور التطور الضروري، لم يكن لنا مهرب من تلك



الهُوّة. ويا ليت المسيحي منا ينسى أنه مسيحي عندما يُقارب أخاه المسلم، من غير أن ينسى الله؛ ويا ليت المُسلم منا ينسى أنه مُسلم عندما يُقارب أخاه المسيحي، من غير أن ينسى الله؛ فيتقارب المُسلم والمسيحي التقارب الإيجابي، المُبدع، المنشود. ولكن الواقع هو أن المسيحي رُبّما نسيَ الله ولم ينسَ أنه مسيحي، والمُسلم رُبّما نسيَ الله ولم ينسَ أنه مُسلم. فكان التقارب الإسلامي والمسيحي، في وجه عام، تقارباً خارجياً تفصله عن جوهر الأعماق كثافة تاريخية أخشى أن تكون سلبياتها على ازدياد يُفسح لشياطين التّعَصُّب أن تعيث في الضمائر والخواطر، على تعدد الظواهر والأبعاد. أقول ذلك بجرأة مَن له من الأصدقاء بين المُسلمين قدْرُ ما له من الأصدقاء بين المسيحيين، على ما يشهد عليه الذين عرفوني فعرفوا صراحتي المُتحررة من أكثر العقد[1] والمُرَكّبات.

فقال الشيخ الجسر: «مرحباً بهذه الصراحة. كمِّلْ، كمِّلْ، مِن فضلك.»

فقلت إن تحديات الجغرافية والتاريخ تصبّ على لبنان موادها السريعة الالتهاب، فتُبقيه في فوضى أخطار مُتناسخة العهود. المُنقذ الأكبر هو من يستطيع أن يقضي على فوضى لبنان قضاء إيجابياً، فَيُصَيِّر اللبنانيَّ مُؤمناً بأن وطنه دينُه، وينفي عنه عِلَلَ الشعور بأن دينَه وطنُه وبأن اللّه زعيم سياسي أو رئيس حزب. وعندي أن الواحد منا، في ساعات الشر ذهولاً وضعفاً وتعباً وانقياداً للغرائز والأهواء والنفعيات، ينحرف إلى المواقِفِ الطائفية، فيكفرُ بحقيقة لبنان. وعندي أن الواحد منا، في ساعات الخير وعياً وقُوّة ومنطقاً مُسيطراً على الغرائز والأهواء والنفعيات، يُعرض عن المواقف الطائفية، فيؤمن بحقيقة لبنان.

أَنصتَ لي الشيخ نديم الجسر إنصاتاً مُتفهماً، مُحبّاً، كريماً وقال: «المثل الذي ضربتَه لي أمرٌ واقع وإن يكن، في رأيي، نتيجةً لا سبباً. لبنان حياته بالإخاء والمُساواة بين فئاته المتعددة وإلّا ساده الظلم والظلام.»

(١) في ذلك الوقت لم تكن عقدة الهواجس الأقليّة قد رَكِبَتْني همومُها بعد.



فقلت إذا كان في لبنان أُمور كثيرة تُفَرّقُ بين الفئتين الكبريين، فإني أرى بينهما جامعاً مشتركاً هو اللغة العربية.

فشعرتُ أن الشيخ الجسر قد ارتاح لـمّا ذكرتُ العربية على ذلك النحو. وما لبث أن قال: «رُبّما كنتَ أوّل من استعمل لفظة **الـجامع** المُشترك بدلاً من **القاسم** المُشترك.» فقلت إنني أجد في **القاسم** (وهو من القسمة أي النصيب) ما قد يُذَكّر بالتقسيم. أما **الـجامع** المُشترك، فإن له دلالة إيمانية تذكِّر بدار العبادة، وإن يكن **القاسم** و**الـجامع** هما، لغةً، بمعنًى واحد.

فقال: «لمستُ، في قراءتي **من لا شيء**، أنك تُحبُّ لغتنا العربية حُبّاً واعياً عميقاً، وتُوليها عناية مُدققة فائقة، وتحرص عليها حقَّ الحرص.» فقلت إن ذلك هو الواقع الذي لا ريب فيه. واستأذنتُ في أن أتلو بعض ما كتبتُ في موضوع اللغة. فقال: «تفضَّلْ.» فتلوتُ على الشيخ الصديق ما هذا نصه:

وُلد حُبّي للعربية قبلما وُلدتُ، فوعيتُها منذ وعيتُ. وكان أكثر ما رأيتُ حولي كُتباً وجرائد ومجلات ومنشورات شتى، فضلاً عن ألوان من مُسَوَّدات مخطوطة ومطبوعة. وأكاد أقول إني تغذيت، سحابةَ العمر، بورق المطابع وحبرها وبحروفها التي ورثتُها أباً عن جد.

ولقد سلكتُ في اللغة من الباطن إلى الخارج، فسِرتُ فيها من صميميات الروح إلى شكليات الحرف. فوجدتُ أن للكلمة، المَؤَلَّفة من بضعة أحرف، أبعادَ كينونة حضارية. واختبرتُ أن اللغة هي، أولَ كُلِّ شيء، ظاهرة اجتماعية. وأدركتُ أن العربية، مع وفائنا لأُصولها، لا تشذ عن هذه القاعدة. لست أزعم أن لُغَتنا أُمُّ اللّغات، ولكن أقول إنها من أجمل اللغات. ولستُ أزعم أنها أغنى اللغات، ولكن أقول إنها تستطيع أن تُجاري العصر إذا أُتيحت لها، في مُجتمعاتها ومَجامعها، المادة الحيوية الحية التي تجعل اللغة في حركة مُستمرة وتقدّم نابض موصول؛ وذلك أن اللغة تلحق التطور، وما الضد بصحيح. ولو كان للعرب طاقتهم الذرية، مثلاً، لقدروا أن يقترحوا لُغتهم على سواهم اقتراحاً شبه عفوي. ولا يخفى أن التخلّف العلمي والتقني هو مما يعوق اللغة عن أن تنمو وتتطور.

ثم إن اللغة، في رأيي، فعلُ اجتهاد زيادةً على كونها ظاهرة اجتماعية.



وعندي، في صدد الاجتهاد اللغوي، أشياء واقعيّة أُثِرَتْ عن فارس الخوري، إذ كانت له في بعض الدقائق اللغوية اجتهادات متينة متانة منطقه. مَثَلُ ذلك اجتهاده في **دَوْليّ ودُوَليّ**. فإذا قيل: «الموقف الدَّوْلي»، اقتُصِرَ على دولة واحدة؛ وإذا قيل: «الموقف الدُّوَلي»، لم يُقتصر على دولة واحدة. وكان فارس الخوري يرجع، تأييداً لهذا الرأي، إلى رسالة في النسبة وضعها جبر ضومط أيام كان يرئس دائرة الدروس العربية في الجامعة الأميركية في بيروت. وفحوى تلك الرسالة أن النسبة إلى الجمع بدلاً من المفرد أفضل منعاً للالتباس وإفصاحاً عن المقصود. وأوردَ ضومط أمثالاً مُتعدّدة تدل أن النسبة إلى الجمع أقرب إلى المنطق من النسبة إلى المفرد خلافاً للقاعدة التي لا تُجيز النسبة إلى الجمع إلّا استثناء.

وكان لفارس الخوري اجتهاد لغوي آخر يُضاف إلى اجتهادات له جمّة لا مجال لها هنا، وذلك هو الفرق بين **مَدْرَج ومُدرَّج**. فيقال: «مَدْرج الملعب»، أي مقاعد الجمهور. ويقال: «مَدْرج السكة الحديد»، أي موقف الركاب. ويقال: «مُدرَّج المطار» لأن الطائرة تهبط فيه تدريجاً.

لم يَدَّعِ فارس الخوري أنه عالم لغوي، ولكنه كان من رجاحة الرأي وسَعَةِ الاجتهاد على ما أَمكنه أن يقول في بعض شؤون اللغة.

ويطيب لي، فضلاً عن ذلك، أن أُذَكِّر بموقفَيْن اجتهاديّين مُتكاملَيْن في موضوع تطوير اللغة: موقف عبداللّه البستاني صاحب معجم **البستان**، وموقف محمود تيمور الكاتب والقصصي المصري.

أما عبداللّه البستاني، فقد طرحتْ عليه جريدة **المَعْرِض**[1] الأسبوعية السؤال التالي: «كيف نُعبِّر عما تُنتجه أدمغة المخترعين في هذا العصر، وكيف نُسمّي المُحدَثات التي تطلع علينا كل يوم، أَنَنْحَتُ لها ألفاظاً عربية جديدة بطريقة الاشتقاق، أم نأخذ أسماءها الفرنجية كما هي؟»

فقال: «لسنا أَفضل مِمّن تقدَّمنا من العرب، فقد دخل على العربية في أيام الخُلفاء بني أُميّة وأيام بني العباس ألفاظ غريبة عن اللغة ما لبثت أن أغنتها

(١) جريدة **المعرض**، بيروت ٢٠ شباط ١٩٣٠، العدد ٨٩٣ .



وأصبحتْ منها. التجدد واجب في كل أُمّة، وهو شرطُ حياتها، ولا سيما أن اللغات الأجنبية أخذت عنا في الماضي ألفاظاً كثيرة. فلماذا لا نفعل نحن اليوم مثلهم؟ اشتغلتُ باللغة كثيراً، وأرى أن نأخذ بطريقة الاقتباس لا الترجمة. خذ لفظة **تلفون** مثلاً، فإذا سألني سائل ماذا أقول بترجمة هذه اللفظة، أجبت، بلا تردد، أنني لا أستعمل كلمة **نَدِيّ**، ومعناها الطلب البعيد، بل أقول **تلفون** لا أكثر ولا أقل، مع أن في اللغة العربية لفظة تؤدي معنى الكلمة تماماً، ولكننا لن نتمكن من جعلها عامة شائعة. وأتطرف في ذلك فأُصَرِّف لفظة **تلفون** وأصوغ منها فعل **تَلْفَنَ** عربياً خالصاً.»

وأما محمود تيمور، فقد نشر في مجلة **الهلال**(١) بحثاً ورد فيه ما يلي:

«أَقْرَبُ ما يُعترَض به على القائلين بجمود اللغة العربية، وينفي عنها تشبيهها باللغات الميتة، أنها لبثت قرابة ألف وخمسمائة سنة تُؤدي مهمتها على وجه مرضٍ. وحسْبنا الصحافة مِصداقاً لهذه الحقيقة، فقد لانت العربية للصحف والمجلات تُعبِّر عن شؤون الحياة العامة والخاصة. ولا جَرَمَ أن بقاء الفُصحى على هذا النحو يكاد يُعَدّ مُعجزة في عالم اللغات، ولكنها مُعجزة لها مُسوّغاتها الطبيعيةُ التي لا افتعال فيها ولا قسر. فالآن يجمل بنا أن نُساعد قُوى هذه اللغة على أن تتطور التطور الأوفى، وأن نجعلها أكثر لياناً وطواعية لتُواتي مُقتضيات الحضارة العلمية والأدبية والعمرانية اليوم وغداً، فتكون أكثر صلاحية للتعبير، وأشد عضداً لمواجهة الزمن القريب والبعيد. وفي سبيل هذا الهدف الأسمى يجب أن نعتبر اللغة كائناً حياً ينمو ويتطور، لا كائناً أثرياً قيمته في ذاته وفي احتفاظه بحالته.»

إن تلك الآراء اللغوية للأعلام الثلاثة المذكورين لَتُبَرْهِنُ أن الاجتهاد في العربية، مع تمام الوفاء لجذورها كما قلتُ مراراً، هو مِن أمتن الأُسُس التي تُبنى عليها مُمكناتُ تطوير الفصحى وترقيتها وأغنائها في تنوع أساليبها.

والأُسلوب، هنا، عصبُ اللغة؛ واللغة لسان الكلمة؛ والكلمة، مِثل الإنسان،

(١) مجلة **الهلال**، أبريل ١٩٤٤، ص ١٨٨ .



سيرة روح وجسد متفاعلين في مغامرة كيانٍ حي، متضامن الأسباب والغايات.

وأَغلبُ الرأي أن العربية إذا أُشرعتْ دونها أبواب الاجتهاد، كانت، عندنا في لبنان على الأقل، أساساً من الأُسس التي تُبنى عليها نقائض التعصب. وأغلبُ الرأي، أيضاً، أن البيئاتِ العربيةَ في ديارها القريبة والبعيدة، تنفتح لنا، نحن اللبنانيين، حين تجدنا نُعنى بالعربية عناية إيجابية مُبدعة مسؤولة. ولديَّ، في هذا النحو، اختباراتٌ تُسَوِّغ قولي بأن العربيّ يؤاخي اللبنانيّ إذا شعر أن اللبناني يُحبُّ الفُصحى ويُتقنها، وتُسَوِّغ قولي بأن العربي لا يُؤاخي اللبناني إذا شعر أن هذا لا يُحبُّ الفُصحى ولا يُتقنها. فكان، في قَدَرِ رسالتنا، نحن بني لبنان وبناته، أن نوالي ما عمله أجدادنا وآباؤنا في زمن الانبعاث، إذ كانوا سُفراء العربية، سُفراءها الأحرار، في مشارق الثقافة وفي مغاربها.

ذلك هو النّصُّ المُسْهَب الذي تلوتُ على الشيخ نديم الجسر. فأصغى إليّ إصغاءَ العقلِ النيِّر والقلب المُنفتح الكبير. ولكنه قال للوالدة ولي وهو يُودّعنا: «قصة شارع المعرض تحزّ في صدري.»

ولم يَجُلْ قط في خاطر الزائر الجليل، ولا في خاطر الوالدة، ولا في خاطري، ما كُتب لنا أن يحزّ في نفوسنا أجمعين بعد بضع عشرة سنة من تلك الزيارة المأثورة، إذ أمست اللغة السائدة، عندنا، هي لغة السلاح في مِثل حوار الخُرس والطُرش والعميان.



دار الجديد

٧

... من زقاق البلاط إلى كنسنغتن رحلةُ عمر في مَنطق الجغرافية والتاريخ ملءَ مغامرات النهار والليل. رحلةٌ منقبضة الأنفاس، على تمزق وضياع بين كآبة الفُرقة وفرح التلاقي، وعلى انفتاحِ أفقٍ وعمقِ طموحٍ طلباً لمنشود غيّبته المجاهل، فلم يبقَ لي من صراعٍ وجوده إلّا عبثُ الزّفات، زُفات الهواجس.

فلما أدّيْتُ هواجسي تلك، فأبديتُ منها ما استطعتُ أن أُبدي، شعرتُ أن الكتابة، إزاءَ الحوار الجريح المُدَجَّج، غدت فناً من الفنون الباطلة.

وانهالت عليّ رُؤى كوارث في انهيار عوالم وسقوط شعوب وأوطان، مع أحلامِ رحيل واغتراب ومُرتجياتِ حرية وخلاص. فاختلط سواد ذلك كله وبياضه في غموضٍ عُضال استعدتُ فيه كلاماً لميشال أسمر، مؤسس **الندوة اللبنانية**، حينما زارني في لندن صيفَ ١٩٨٢، إذ قال لي بصوتٍ متهدج: «فقدتُ آخر أمل، ولو كنتُ أقدر أن أرحل كما فعلتَ، لرحلتُ.»

فقلتُ له: إنّا للبنان وإنّا إليه راجعون، إذا رجع لبنان، يوماً، إلى مستوى الإنسان.

وأتت عليّ بضعة أعوام أضربتُ فيها عن الكتابة إضراباً شبه عام. ثم عدتُ إليها، في ربيع ١٩٩١، بالمُخْتَصَرة التالية:

من الحروب الطائفية، وغير الطائفية، في لبنان، إلى سلام الطائف مسافةُ عهودٍ مُضَرّجة المراحل، مُتناسخة الفصول. ولعلّنا اليومَ في أوائل النهاية، على أنْ تُعْقِبَها مقاصدُ جِدٍّ إجماعاً، أو صنوَ إجماع، و إلّا انكفأنا إلى شرٍّ ما تَقلَّبنا عليه في حُمّى تاريخِنا المُثْخَن حتّى الموت، الموت على رجاء القيامة.



دار الجديد

للمؤلف:

في منشورات الندوة اللبنانية ـ بيروت

- صوت الغائب، ١٩٥٦
- من لا شيء، ١٩٥٨
- أيام السماء، ١٩٦٠
- وصية في كتاب، ١٩٦٠
- أرضنا الجديدة، ١٩٦٢
- مصير، ١٩٦٥

في منشورات La Guilde du livre ـ لوزان

- **لبنان**، ١٩٦٧

في المنشورات العربيّة ـ باريس

- **بدايات الخليقة** تأليف **رينه حبشي**، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٦٨

في منشورات اللجنة اللبنانيّة لترجمة الروائع، اليونسكو ـ بيروت

- **الاعترافات** تأليف **جان جاك روسو**، مترجم عن الفرنسوية، ١٩٨٢

مُعدّ للطبع

- **التراب الآخَر**
- **زمن البراكين**
- **أسير الفراغ**



دار الجديد

إنّا للبنانَ وإنّا إليه راجعون، إذا رجَع لبنانُ،
يومًا، الى مستوى الإنسان.

لوحة الغلاف : "دون كيشوت" دومييه